بدري حجل

شواهد على

نشوء الأمة السورية

مدخل قصر الملك سرجون الثاني

منشورات دار فكر

بدري حجل

شواهد على
نشوء الأمة السورية

منشورات دار فكر

تحية إكبار

إلى القائد الذي ما غاب منه إلا الجسد،
إلى صاحب اليد الأولى في إيجاد وحدة الكلمة والموقف
بين دمشق وبيروت،
إلى من احتضن المقاومة وعزز دور الصمود،
إلى سيادة الرئيس حافظ الأسد.

وتحية إعجاب وتقدير

إلى قائد مسيرة التحديث والتطوير والتنمية،
إلى البشير الواعد بتخليص المجتمع السوري
من الساعين إلى الفتنة والفرقة،
ومن المستغلين والمتعالين،
وكلّ مسببي إعاقة النهوض،
إلى سيادة الرئيس بشار الأسد.

الإهداء

إلى كل عشاق الحقيقة،
إلى الذين لا يشغلهم الاعتزاز بالماضي المجيد عن العمل البناء من أجل الغد الأفضل،
إلى تلامذة سعادة من أبناء الحياة وطالبيها،
إلى الذين لا يرَون الحياة إلا وقفة عز فقط.

المقدمة

بهدي من فكر المعلم الزعيم أنطون سعادة، وانطلاقاً من نظرته الواضحة إلى الحياة والكون والفلسفة والفن،

واستناداً إلى القاعدة الأساس التي انطلق منها لتحديد عوامل نشوء الأمم عموماً،

جاء هذا الكتاب ليكون، فيما أرى، محاولة للإحاطة بمجمل العوامل التي أدّت إلى نشوء المجتمع السوري الأول، وتكوّن المتحد الأتم، أو الأمة السورية، بنوع خاص؛ ولكي يكون تمهيداً لأبحاث كتاب لاحق متمم يتناول ملامح الحياة الحضارية في سورية، ومراحلَ تطور هذه الحضارة، منذ ما قبل العصر الجليّ وحتى اليوم،

وذلك بالاستناد إلى عدد من المراجع التاريخية التي تتصف أبحاثُها بالموضوعية أو بنهجها العلمي في البحث.

متوخياً، من ذلك، توفير مرجعٍ يتيح لشبابنا وأجيالنا القادمة فرصة الاطلاع على تاريخ أمتهم بشكل متسلسل وموحد، حسب تتالي العصور، تاركاً، للضالعين في البحث والتقصي من رواد التنقيبات الأثرية، متابعةَ إلقاء الضوء على مزيد من التفاصيل في شتّى الموضوعات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية والفنية.

آملاً أن أكون قد أحرزت بعض التوفيق في تقديم ما فيه من فائدة.

المؤلف

الباب الأول

سورية وجغرافيتها

الفصل الأول
الموقع وعوامل البيئة

الموقـــع

تحتل سوريةُ موقعاً متوسطاً بالنسبة لقارات آسيا و أوربا وأفريقيا، وقد أهّلها هذا الموقع الممتاز لأن تكون ملتقى الطرق التجارية منذ القدم.

فهي تمتد بين الساحل الشرقي للبحر المتوسط غرباً، والهضبة الإيرانية شرقاً، وبين القوس الجبلي لسلسلة جبال طوروس شمالاً المتلاقية في شمالها الشرقي مع سلسلة جبال زاغروس والقوس الصحراوي جنوباً الذي يلامس طرفه الغربي خليج العقبة على البحر الأحمر، وينتهي طرفه الشرقي على الخليج العربي، شاملاً منطقة عربستان في شرقي هذا الخليج.

وإن إحاطتها بذلك القوس الجبلي الهائل في الشمال والشرق، الذي يكمله البحر المتوسط غرباً، وبالقوس الصحراوي الأصغر في الجنوب، قد أعطتها شكل الهلال.

وبما أنها بقعة خصيبة بين قوسين مجدبين، فقد أطلق عليها العرب اسم "الهلال الخصيب" التي تميزت باعتدال مُناخها، ووفرة مياهها وأنهارها، مما جعلها صالحة للاستقرار البشري منذ أقدم العصور حيث استقرت فيها، على التوالي، عدة سلالات بشرية تمازجت فيها وتفاعلت مع بيئتها، فشكلت حضارة مميزة منذ ما قبل التاريخ الجليّ، أو منذ عصور ما قبل التاريخ.

العوامل الفعّالة في تكوين البيئة السورية[1]

إن العوامل الفعالة في تاريخ سورية وسكانها ثلاثة وهي:

أولاً- العامل الأول:

وضعُها الجغرافي المميز كمجموع لمناطقَ متنوعة التضاريس: فقد تقطّعَ سطحُ الأرض، خاصة في الجناح الغربي من الهلال الخصيب، في شماله الشرقي بشكل لم يسمح بوجود بيئة تتسع اتساعاً كافياً لنشوء دولة قوية شاملة، لذلك عُرفت هنا حكوماتُ المدن؛ بينما اتسع الجناح الشرقي منه لتشكيل دولة موحدة فيما بعد، لم تلبث أن بسطت نفوذها على الجناح الغربي أيضاً.

---

[1] "فيليب حتي": "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين"، الجزء الأول، ص: 64.

ثانياً– العامل الثاني:

هو موقعها الاستراتيجي كحلقة اتصال بين القارات التاريخية الثلاث، وهو أمر جعلها معرّضة للأخطار والغزوات من جميع الجهات.

أما الطرق الداخلية القديمة فكان لها أثرها في التواصل الاجتماعي، وأول هذه الطرق الطريق الساحلية التي تربط بين مدن الساحل كلها، من سيناء جنوباً حتى الكرمل، حيث تتفرع إلى فرعين: يتجه فرع إلى بقية مدن الشمال الساحلية حتى طوروس؛ ويسير الآخر إلى الداخل فيجتاز سهل مجدّو، ويعبر نهر الأردن في واديه الشمالي، ثم يتجه رأساً إلى دمشق في الشمال الشرقي. ومن هنا يتفرع طريق يعبر بادية الشام بوساطة تدمر، ويربط جناحي الهلال الخصيب (بلاد الشام، وبلاد الرافدين) أو يربط دمشق ببابل. ومن دمشق يتجه أيضاً طريق رئيس نحو الغرب، ويعبر لبنان الشرقي بوساطة ممر الزبداني، ويصعد شمالاً، عبر حفرة الانهدام متبعاً نهر العاصي وقادش حتى أقصى الشمال، وعند قادش يتفرع أيضاً في الشمال إلى البحر بطريق الممرات الجبلية في جبل الأمانوس، يتفرع إلى الشمال الغربي بطريق الأبواب الكيليكية، ليصل إلى آسيا الصغرى، وهو يتحول إلى الشرق نحو الفرات، ومن هناك نحو الدجلة، وجنوباً حتى الخليج.

ثالثاً– العامل الثالث:

هو الطريق الدولي العظيم وأثره في دخول التأثيرات العالمية وتدفق الجماعات البشرية.

إن هذه الطريق ذات مداخل عدة يمكن تتبعها من دلتا النيل وسواحل سيناء في الجنوب، والتي تتفرع إلى مناجم النحاس والفيروز في سواحل البحر الأحمر، إلى أراضي البخور في شبه الجزيرة العربية واليمن.

فهي طريق القوافل التجارية التي تقصد البتراء، ومنها إلى بابل عبر دمشق، كما أنها معبر للهجرات والغزات. فإلى وادي النيل عبر الهكسوس، وسارغون وسنحاريب الآشوريين، ونبوخذ نصر الكلداني؛ والاسكندر المكدوني، وقمبيز الفارسي، وبومبي الروماني، وعمرو بن العاص العربي.

ومن وادي النيل إلى سورية، عبر هذه الطريق كل من تحوتمس ورمسيس ونخاو من فراعنة مصر، وموسى مع بني إسرائيل، كما جاء في العصر الحديث كل من نابليون، وإبراهيم بن محمد باشا، وأللنبي الإنكليزي.

من الشمال يمكن تتبع هذه الطريق الدولية، من الأبواب الكيليكية التي تتصل بتفرعات الطرق الداخلية، إضافة إلى طريق البحر والموانئ البحرية السورية المتصلة بالعالم الأوربي أو الغربي.

ومن جهة الجنوب، من شبه الجزيرة العربية، ومع استحالة توفر طريق واحدة عبر الصحراء، دفعت الظروف الطبيعية

موجات منذ الألف الرابع قبل الميلاد لتستقر في بلاد الهلال الخصيب بجناحيه الشرقي والغربي.

أما الطريق الدولية من وإلى الشرق، فهي الطريق التي تحاذي الشواطئ الشرقية للخليج العربي والتي تصلها بشمال الهند، وبلاد فارس، ومنها جاءت غزوات عديدة، بدءاً من غزوات الكاشيين والفرس، حتى الغزو المغولي في نهاية الدولة العباسية.

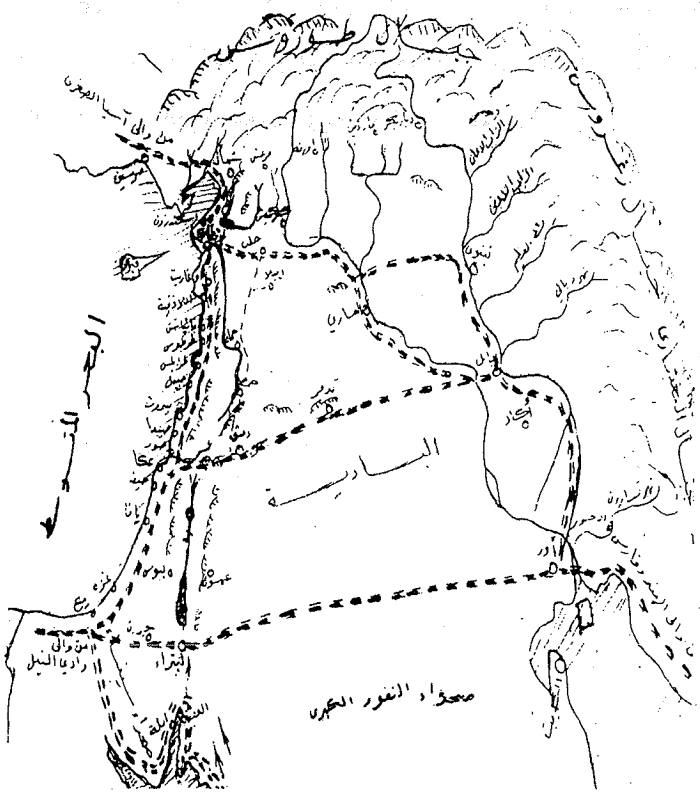
البادية
صحراء النفود الكبرى

الفصل الثاني
التضاريس

مقدمة

تدل المنحدرات المتصدعة في لبنان، والوادي المتصدع الكبير الممتد من خليج العقبة إلى البحر الميت، فوادي الأردن والمستمر في كل من وادي الليطاني ووادي العاصي، على وجود منطقة الزلازل هناك.

على أن منطقة الهزات الأرضية لا تقتصر على أماكن الزحول والتصدع، فالهضبة الواقعة شرقي جبل حرمون، وجنوبي دمشق، تخترقها خطوط من البراكين الخامدة، وتعلوها، في أماكن متفرقة، حقول المواد البركانية، وتوجد ينابيع مياه حارة موزعة في بعض المساحات، كما في طبريا، والبحر الميت، والحمّة، وتدمر، وغيرها.

وتبرز حوادث الزلازل في تاريخ سورية أكثر من بروز البراكين في جغرافيتها، فقد أصيبت أنطاكيا بالزلازل عدة مرات، وتشاهد في معبد الشمس المشهور في بعلبك آثار الاضطرابات التي سببتها الزلازل، ويشير تهدم أسوار أريحا المفاجئ في عصر الغزو الإسرائيلي الأول، وكذلك خراب سدوم وعمورة الشهير في الطرف الجنوبي الغربي للبحر الميت، إلى حصول زلازل رافقتها النيران في الأخيرة بسبب ترسبات نفطية واسفلتية. وعندما كان أنبياء اليهود يكتبون في وصف سلطة يهوه وقدرته، فإنهم كانوا يعتمدون على مشاهداتهم الشخصية للهزات الأرضية التي ترافقها الأمواج المرتفعة. ويخبرنا الإنجيل عن حدوث زلزال عند صلب المسيح، وآخر عند قيامته. وقد حدثت آخر زلزلة عنيفة 1882م في الشمال وحولت حلب، وما جاورها، إلى مجموعة خرائب. وكان قد سبقها زلزال قوي في فلسطين 1833م هدم صفد تهديماً تاماً.

ومن الواضح أن تلك الحركات الأرضية الباطنية، قد كان لها الأثر الكبير في تنوع التضاريس من جهة، وفي الحياة البشرية والعمرانية من جهة ثانية.

أما علم طبقات الأرض فيخبرنا أنه قبل عصور كثيرة من فترة ما بين العصور الجليدية، كانت مياه، ما نسميه اليوم البحر المتوسط، تغطي أراضي سورية بأسرها، والبلاد الواقعة شرقاً حتى شمالي الهند؛ وكان ذلك في العصور الجوراسية والكريتاسية البعيدة. وخلال هذه الأحقاب، تراكمت الرسوبات الآتية من

الكتل القارية الشمالية والجنوبية في قعر الامتداد السابق للبحر المتوسط، وشكلت الصخور الكلسية.

وفي الدور الطبقي الثالث الذي أتى بعد الكريتاسي والطبشوري، حصلت حركات أرضية واسعة، نتج عنها نهوض الطبقات السفلى والتواؤها، وبالتالي تضيّق رقعة البحر المتوسط؛ وأدى ذلك إلى ظهور جبال السلسلتين الغربية والشرقية في بلاد الشام، وهضاب البادية السورية، والجبال الشرقية والشمالية المتاخمة لجبال زغروس والمتفرعة عنها.

وتساعد البقايا الحيوانية التي دفنت في الرسوبات وتحجرت، على تحديد العصر الذي حصلت فيه عملية الترسيب. ومن أشهر الأماكن التي وجدت فيه، الأسماك المتحجرة، ساحل علما قرب جونيه، وحاقل شمالي جبيل[2].

التضاريس والشكل الطبوغرافي

إن الصفة البارزة للطبوغرافية السورية في بلاد الشام هي: تناوب الأراضي المنخفضة المرتفعة بشكل يحاذي فيه بعضها بعضاً من الشمال إلى الجنوب.

ويمكن تمييز خمس مناطق طولانية من هذا القبيل بين البحر والبادية هي: السهل الساحلي - السلسلة الغربية - حوض التصدع - السلسلة الشرقية - البادية.

---

[2] "فيليب حتي": "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين": الجزء الأول.

أما الجناح الشرقي للهلال الخصيب والمعروف باسم بلاد ما بين النهرين أو الرافدين أو العراق، فهو يشكل ملتقى المنحدرات؛ فالبادية تنحدر أطرافها الشرقية باتجاه وادي الفرات تدريجياً، والجبال الشرقية المتفرعة من جبال زغروس، والهضبة الإيرانية باتجاه الدجلة، ومنها روافد هذا النهر.

وينقسم السطح في ما بين النهرين إلى منطقتين تضاريسيتين:

القسم الشمالي حتى بغداد، وعرف باسم الجزيرة، وهو أرض متموجة في الغالب تتعاقب فيها التلال والأودية، والقسم الجنوبي، ويعرف بالسواد، وهو سهل شنعار قديماً، ويمتد من بغداد حتى الخليج العربي، وتلتقي في نهايته مياه النهرين وتنتشر فيه الأهوار والمستنقعات، ويشكل أقليم عربستان امتداداً طبيعياً للمنطقة الدلتاوية في الجنوب الشرقي، حيث يجري نهر قارون الذي ينبع من الهضاب الشرقية (بشتكويه – بختياري) والذي يرفد شط العرب المكون من التقاء نهري الدجلة والفرات[3].

تضاريس الساحل السوري

يبلغ طول الساحل السوري أكثر من ألف كيلو متر بين سيناء جنوباً، وسفوح جبال طوروس في الشمال الغربي. وكان تكونه الأخير منذ أواخر الزمن الثالث عندما كانت رؤوسه

[3] كان نهرا الدجلة والفرات ينتهيان إلى مصبين متباعدين قديماً، قد أدى تغير مجرى كل منهما، نتيجة الفيضانات إلى اندماجهما في مجرى واحد.

وخلجانه أشد تعمقاً منها الآن، ثم ردمت الخلجان الصغيرة وبعض الكبيرة، وتشكلت مكانها السهول الساحلية التي ساهم في تكوينها الشبكات الحصوية القارية، والرمال البحرية التي تصلبت في كثير من المواضع، وكونت حجراً رملياً، وظل الحديث منها على شكل كثبان ساحلية في كثير من المواضع أيضاً، وكذلك تكونت تربة سوداء غضارية في المستنقعات القديمة ومصبات الأنهار، وتربة حمراء (مغراء) على السفوح الدنيا.

أقسامه الرئيسة

يمكن أن نلاحظ في الساحل السوري ثلاثة أقسام متنوعة التضاريس والمُناخ هي: القسم الجنوبي، والقسم الأوسط، والقسم الشمالي.

آ- **القسم الجنوبي**: يمكن تسميته القسم الفلسطيني بين رفح ورأس الكرمل على طول 200 كم، ويبلغ عرضه الأقصى 35 كم عند يافا، وقد عرف القسم الواقع إلى الجنوب من هذه المدينة باسم سهل فلسطين، والقسم الواقع إلى شمالها باسم سهل سارونة، وهذا الأخير يضيق باتجاه الشمال حتى يكاد ينعدم في رأس الكرمل عند حيفا.

ويحاذي هذا القسم من الجنوب الشرقي، والشرق هضبة النقب، وجبال الخليل، والسامرة، ويرتفع نحوها تدريجياً. أما جهة البحر فنجد ساحلاً رملياً مستقيماً ومخفضاً.

يتمتع القسم الجنوبي من الساحل السوري بمُناخ دافئ شتاءً لا يعرف البرودة أو التجمد، كما يكون حاراً صيفاً؛ مما أمكن معه لشجرة نخيل التمر أن تتكاثر في قطاع غزة الجنوبي، إلى جانب أشجار الحمضيات، حيث يلتقي الإقليم المتوسطي البحري بالإقليم الصحراوي مباشرة، ويتبين ذلك من كمية الأمطار التي تبدأ قليلة قرب حدود سيناء، ثم تزداد سريعاً في اتجاه الشمال، وتقل الأنهار الدائمة الجريان في السهل، وأهمها نهر العوجا الذي يصب شمالي يافا.

ب- القسم الأوسط: يمتد بين رأس الكرمل عند حيفا ورأس المينا عند طرابلس على طول 270 كم محاذياً جبال الكرمل والجليل وسلسلة جبال لبنان الغربية.

تبدو في هذا القسم آثار الحت البحري من رؤوس وخلجان وبقايا جزر، هدمت بالزلازل أو وصلت بالبر، ويزداد قرب الأعماق البحرية من الشاطئ مما يجعل هذا القسم أكثر التصاقاً بالحياة البحرية من سابقه. وتصلح الرؤوس والخلجان فيه لحماية السفن من الرياح الجنوبية الغربية والأمواج العالية. لذا قامت فيه مدن بحرية عديدة (حيفا - عكا - صور - صيدا - بيروت - جبيل — طرابلس)، وقد ساعد في قيامها الاتصال بين الساحل والداخل عن طريق المنافذ البحرية.. فحيفا وعكا تصلان بغور الأردن وما وراءه عن طريق سهل مرج ابن عامر، وعن طريق الجليل الأدنى فأعالي الأردن وهضاب الجولان وحوران إلى دمشق،

وتتصل صور وصيدا وبيروت بالبقاع الجنوبي فدمشق عبر ممر الليطاني، وممر ظهر البيدر، وتتصل طرابلس بحمص عن طريق ممر تلكلخ. وهذا القسم أوفر مطراً من سابقه، وأكثر أنهاراً، ولكن سهوله أقل اتساعاً وتشمل:

- سهل عكا الذي يبلغ عرضه (12 كم) ويرويه نهر النعامين.

- سهل مرج ابن عامر الذي يجتازه نهر المقطع، ويصب في البحر بين عكا وحيفا.

- سهول صور وصيدا التي تتوزع فيها مياه الليطاني والزهراني والأولي.

- سهول الدامور والشويفات التي تمتد حتى جنوبي بيروت.

- سهول صغيرة أخرى شمالي بيروت مثل سهل أنطلياس.

ج- القسم الشمالي: يمتد من رأس المينا عند طرابلس حتى خليج مرسين.

ويتميز هذا القسم عن سواه بتعاريج واسعة نتيجة التداخل بين البر والبحر، ذلك التداخل الذي يتزايد باتجاه الشمال كلما اقتربنا من الالتواءات الطورسية وفروعها. وفيه تميل محاور الالتواءات على الساحل، وتكون مقرونة ببعض الصدوع والانكسارات. وتبدو آثارها في ظهور الالتواءات إلى ظهور جزيرة كبيرة لا تبعد عن اللاذقية أكثر من مئة كيلو متر هي

الصخور الاندفاعية البازلتية والخضراء. وكذلك أدى إلى ميل جزيرة قبرص التي هي بالأصل امتداد السفوح الغربية لجبل الأقرع، فصل بينهما طغيان البحر. وباستثناء هذه الجزيرة، تكاد تنعدم الجزر جنوباً، ولا نجد أمام الساحل غير جزيرة أرواد الصغيرة جداً 700 – 400م.

أهم أجزاء هذا القسم

1– القسم الممتد من خليج عكار حتى مدينة اللاذقية:

وهو قليل التعاريج وذو أعماق قليلة، ولا سيما جنوبي طرطوس، ففي شماله وجنوبه نجد خليجين واسعين بساحلين رمليين ينتهي بهما على البحر سهلان هامان هما: سهل عكار في الجنوب حول مجرى النهر الكبير الجنوبي، وسهل النهر الكبير الشمالي عند اللاذقية.

فالسهل الأول أكثر أهمية، إذ يبلغ عرضهُ أكثر من عشرين كيلو متراً، ويتصل في شرقه بسهل البقيعة الانهدامي، وفي شماله بسهل طرطوس الذي يضيق كثيراً عند هذه المدينة.

أما السهل الثاني فيتصل بسهل جبلة خلف مصاطب النهر السابقة، فيما، بين طرطوس وشمالي بانياس، تقترب الجبال من الساحل، ويأخذ هذا الساحل شكلاً تلياً تكثر فيه المجمعات الحصوية والحجر الرملي الرباعي.

ويغلب على هذا القسم من الساحل المظهر السيلي للأنهار والأودية وجفافها الصيفي لعدم توفر الينابيع الدائمة الجريان، نستثني

منها النهر الكبير الجنوبي الذي يعتمد على ينابيع من جبال عكار، ومن الجبال الساحلية الواقعة إلى شمالها. وأيضاً نبع السن شمالي بانياس الذي يعد أغزر نبع ساحلي، ومن أغزر ينابيع بلاد الشام.

أما النهر الكبير الشمالي، فيكاد يجف صيفاً، وهو يصب جنوبي مدينة اللاذقية ويلاحظ أن كميات الأمطار الهاطلة في هذا القسم تزيد في الغالب على كميات الأمطار في ساحل لبنان.

2- القسم الممتد من شمالي اللاذقية حتى خليج اسكندرونة ومنه حتى خليج مرسين:

وهو الذي يتميز بتعاريجه الواسعة العميقة؛ وأبرز ما يتمثل ذلك في رأس ابن هاني، ورأس البسّيط الذي يعد من نهايات الجبل الأقرع على البحر، ثم خليج السويدية الواقع بين الأقرع والأحمر من الأمانوس.

وأبرز سهول هذه المنطقة: البهلولية الممتد إلى الشمال الشرقي من اللاذقية، ثم سهل السويدية في صدر الخليج المسمى بهذا الاسم.

لكن الظاهرة الفريدة في هذا القسم من الشاطئ، هي خليج الاسكندرونة، الذي يقع بين الأمانوس وطوروس، وكيليكيا على طول 75 كم وعرض 35 كم وبأعماق غير كبيرة. وتقع في صدره وعلى خليج صغير محمي، مدينة الإسكندرونة التي أعطته اسمها. وتحاذي هذا الخليج، من جهة الجنوب الشرقي سهول ضيقة لا يتجاوز عرضها ستة كيلومترات، وتنعدم عند رأس الخنـــزير

(نهاية الأمانوس على البحر). في حين نجد في الطرف الآخر من الخليج سواحل منخفضة، يتكون قسم منها من دلتا نهر جيحان، ويستمر الحال كذلك حتى خليج مرسين الذي تنتهي إليه سهول كيليكيا، ونهر سيحان المنحدر من جبال طوروس، وتتعمق هذه السهول نحو الداخل مسافة 75 كم. ولكن تتوفر لها الحماية من الرياح الباردة، كما أنها غزيرة المطر، غير أن الينابيع هنا أيضاً قليلة وتقتصر على نهري جيحان وسيحان. ويلاحظ أن هذا القسم، كسابقه، أكثر عزلة عن المناطق الداخلية بسبب حيلولة الجبال والأودية العميقة بينه وبينها، مع قلة الممرات وارتفاعها (ممر بيلان 687م، وممر ياغنجة شمال الأمانوس 900م).

سلسلة الجبال الغربية

بدأت هذه السلسلة تتكون خلال الزمن الثاني من رسوباته التحتية التي أخذت تلتوي، واكتمل التواؤها في منتصف الزمن الثالث، رافقتها، في مناطق متفرقة، اندفاعات من صخور البازلت، والصخور الخضراء، ولا سيما في النصف الشمالي من السلسلة.

وقد أثّر الحتّ المائي كثيراً في الجبال، ولا سيما في أقسامها الوسطى، حيث أزيلت تركيبات الزمن الثالث، وكشف عن تركيبات الزمن الثاني الكلسية. وعلى الرغم من الحت النشيط، ظلت السلسلة الغربية أعلى جبال بلاد الشام باستثناء جبال طوروس.

الأقسام الرئيسة

أدت الانكسارات الكبرى، واختلاف محاور الالتواءات، إلى انقسام الجبال إلى كتل عديدة، لها طابع هضبي في الجنوب، وجبلي في الشمال، وهذه الكتل هي:

أولاً- هضبة النقب: وتقع بين سيناء، وجبال الخليل، والسهل الساحلي الفلسطيني، وخليج العقبة، ووادي عربة، وحفرة البحر الميت. وتتألف من صخور رملية في الجنوب، وكلسية في الشمال، أصابتها الصدوع والانكسارات، ولا سيما في الشرق والشمال، مما ساعد في تكوين بعض الأودية، وحفر كثيرة في داخلها.

يبلغ متوسط ارتفاع النقب 400م؛ وفي وسطها الغربي بعض الكتل التي يراوح علوها بين 700-1000 م. ويسيطر على هذه الهضبة مُناخ صحراوي؛ لا تتجاوز كميات أمطاره 50 مم في الجنوب؛ و250 مم في الشمال عند بئر السبع، وتنحدر مياه الهضبة نحو المتوسط (وادي غزة)، ونحو وادي عربة في الجنوب.

ثانياً- مجموعة الجبال الجنوبية: وتضم، بصورة رئيسة، جبال الخليل والسامرة وتوابعها، وتتألف من صخور كلسية ملتوية ومتصدعة. وأعلى أجزاء هذه المجموعة 1027 م، نجده في الجنوب بمقابل حفرة البحر الميت الانهدامية، ويطلق عليها هنا اسم جبال الخليل، وهي جبال جرداء وحشة، بسبب قلة أمطارها وينابيعها.

وتكثر فيها الكهوف والمغاور، ولكن هناك بعض السفوح المعرضة جيداً للأمطار، وهي مغروسة بأشجار الزيتون والكرمة.

أما، بدءاً من القدس، فتقل الارتفاعات إلى نحو 900 م. (جبل الزيتون)، يطلق على هذه الجبال اسم السامرة. وتتغير المناظر بسبب زيادة كميات الأمطار، واتساع الأودية وتعددها، وزيادة الينابيع (ينبوع رأس العين الذي يبدأ به نهر العوجا)، وتكثر فيها المدن، إما لوقوعها على طريق المواصلات الطبيعية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب (القدس، نابلس، جنين)، أو لأسباب تاريخية ودينية (القدس وبيت لحم). وتنتهي جبال السامرة شمالاً بغور بيسان، وسهل مرج ابن عامر الذي يفصلها عن الجليل الأدنى، وفي أقصى الشمال الغربي منها تمتد تلال تنتهي إلى البحر بجبل الكرمل المطل على حيفا والذي لا يتجاوز ارتفاعه 550م.

ثالثاً- مجموعة الجبال الوسطى: وتمتد من سهل مرج ابن عامر حتى وادي النهر الكبير الجنوبي. وتتميز عن المجموعة السابقة بعلوها الكبير وامتدادها الطويل على نحو 250 كم. كذلك تتميز بغزارة أمطارها التي تزيد عن 800 مم. ولذلك فقد كثرت أوديتها الجرارة التي عملت مياهها نحتاً في الجبال، وجزأتها إلى كتل عديدة، كما ساهمت الصدوع والمقعرات في تقسيمها إلى:

1- جبال الجليل وعامل: وتمتد من سهل مرج ابن عامر حتى منطقة وادي الليطاني؛ فتبدأ بالجليل بأرض متموجة من

التلال والأودية الواسعة (جبل طابور قرب الناصرة)، كما نجد بعض الحفر المغلقة مثل منخفض النطوف.

ويطلق اسم جبل عامل على القسم الواقع في جنوب لبنان، وفيه تأخذ الأرض بالانخفاض حتى وادي الليطاني.

2- جبال لبنان الغربية: وهي أضخم كتلة جبلية في بلاد الشام، وتمتد بين وادي الليطاني جنوباً، ووادي الكبير الجنوبي شمالاً، وتحاذي وادي البقاع الالتوائي وتنحدر عليه بشدة مثلما تنحدر في الشمال أيضاً على وادي العاصي والنهر الكبير الجنوبي، وتتألف هذه المجموعة من ثلاث كتل رئيسة متدرجة في الارتفاع من الجنوب إلى الشمال:

آ- كتلة الباروك: تبدأ في الجنوب بجبل الريحان القليل الارتفاع عند جزين، ثم تأخذ في العلو كلما اتجهنا شمالاً، حتى تصل إلى 200 م وتنتهي بممر ظهر البيدر، وعلى سفوحها الغربية تنمو غابة الأرز والصنوبر، وتنحدر منها غرباً ينابيع نهري الأولي والدامور.

ب- كتلة صنين: تمتد فيما وراء ظهر البيدر، من جبل الكنيسة جنوباً حتى وادي نهر إبراهيم شمالاً، وترتفع إلى 2608 م، وتغذي ينابيعُ غزيرة بعضَ الأنهار كنهر الكلب، وروافد نهر إبراهيم في الغرب، ونهر البردوني في الشرق.

ج- كتلة جبل المكمل - المنيطرة: وهي أضخم كتلة في جبال لبنان يصل عرضها إلى 50كم وتنهض إلى علو كبير يتزايد

كلما اتجهنا شمالاً حتى يبلغ 2911م في المنيطرة و3088م في القرنة السوداء، وهذا أعلى ارتفاع في بلاد الشام، ثم تأخذ الكتلة في الانفاض شمالاً في جبل كروم 2200م ثم تنتهي إلى وادي النهر الكبير الجنوبي. وتنحدر من هذه الكتلة مياه كثيرة أهمها نهر إبراهيم (مغارة أفقا) و(قاديشا)، والنهر البارد غرباً، وينابيع بحيرة الليمونة شرقاً، أما في الشرق والشمال الشرقي فتغذي قاعدة هذه الجبال ينابيع الزرقاء والهرمل والتنور والنهر الكبير الجنوبي، وقد فقد القسم الأكبر من هذه الجبال غطاءه النباتي منذ عصور بعيدة.

رابعاً- مجموعة الجبال الشمالية: يمكن أن نلاحظ فيها ثلاثة أقسام:

1- القسم الأول: يمتد من وادي الكبير الجنوبي وحتى وادي الكبير الشمالي. والمناطق الجنوبية من هذا القسم قليلة الارتفاع حتى جنوب القدموس، وتنتشر فيها المقذوفات البركانية، ويقع ضمنها ما يسمى بجبل الحلو الذي يعلو إلى نحو 1100م ويشرف على منخفض البقيعة من طرفي هذا المنخفض الشمالي والشرقي، ويعد، مع ما حوله، من أغزر جهات سورية مطراً، كما يعد منطقة توزيع مياه غزيرة نحو البقيعة، والنهر الكبير الجنوبي، ووادي الغاب. أما المناطق الشمالية من هذا القسم فأكثر ارتفاعاً، وتمتد من شمال ممر مصياف - القدموس ولكنها تأخذ شكل النجد النهاض المنهدم بشدة على الغاب، وتكثر في أعاليها الصخور المشققة، وفيها قمم يزيد علوها على 1500م أعلاها قمة النبي

يونس. أما إلى الغرب فتبدو السفوح الوسطى المتأثرة بالحت العادي، وتبدو فيها الأودية العميقة والخوانق التي يصل مدى عمقها إلى 400 م وفيها كل ما يدل على الحت الشديد دون الترسيب.

2- كتلة الباير والبسيط: وتقع إلى الشمال من وادي النهر الكبير الشمالي وممر بداما، وتشرف شرقاً وشمالاً على وادي العاصي، وغرباً على البحر المتوسط. تتألف هذه الكتلة في قسمها الشرقي من هضبة كلسية، أما قسمها الأوسط (يدعى الباير) فيتميز بصخوره الخضر وتموج سطحه، ويعرف القسم الشمالي فيها باسم البسيط، وفيه أضخم كتلة جبلية تدعى الجبل الأقرع الذي ينتهي على البحر برأس البسيط ويعلو إلى 1739 م بقمته الكلسية الجرداء.

3- كتلة الأمانوس- طوروس: وتمتد على طول 400 كم ولها امتداد هام نحو جزيرة قبرص، حيث تتكون من هذا الامتداد جبالها الشمالية، بينما تتكون من امتدادات الجبل الأقرع الجبال الجنوبية للجزيرة. وتنقسم هذه الكتلة إلى قسمين:

أ- جبال الأمانوس أو اللكام: وهي القسم الجنوبي من هذه الكتلة الممتدة من رأس الخنـــزير حتى أعالي وادي النهر الأسود على محاذاة خليج اسكندرونة، ويقسمها ممر بيلان، وتتميز بكثرة غاباتها ووفرة أمطارها.

ب- كتلة طوروس الكيليكية: وتؤلف القسم الشمالي الشرقي وهي أكثر ارتفاعاً، وأشد تعقيداً ووعورة، وأفقر نباتاً، تنحدر مياهها

إلى الفرات وهضبة حلب والعاصي من جهة، ونحو كيليكيا من جهة أخرى، وتؤدي إلى فيضانات سيلية كثيرة المجروفات.

حوض التصدع

يمتد هذا الحوض، (أو ما يسمّى بأودية المقعرات الالتوائية والحفر الانهدامية)، من خليج العقبة جنوباً حتى مرعش إلى الشمال الشرقي من سلسلة الجبال الغربية. وهو ينحصر بينها وبين حافات الهضاب والجبال الشرقية. ويتألف من الانكسارات والسهول المقعرة.

أهم الانكسارات التي أخذ بعضها شكل الحفر الانكسارية: الحفر الممتدة من رأس خليج العقبة حتى أعالي وادي عربة، وحفرة البحر الميت، وحفرة طبريا.

وأهم السهول المقعرة: سهل أريحا غربَ البحر الميت من جنوبي بئر السبع إلى جنوبي بيسان، وسهل الحولة، وسهل البقاع الممتد من مرجعيون حتى بحيرة حمص، ووادي الغاب الذي جفف وأصبح سهلاً؛ وسهل العمق الممتد إلى أعالي النهر الأسود إلى خليج السويدية.

تلك المقعرات والانكسارات يمكنها أن تقسر لنا كيف أصبح هذا الجزء من بلاد الشام، على صغر مساحته، أهم أحواض المياه التي وجد القسم الأكبر منها طريقه إلى البحر، وأهم تلك الأحواض المائية:

1- حوض نهر الأردن: طوله 252كم، ويعد وادي الحاصباني المنبع الأول للنهر، على ارتفاع أكثر من 500م الذي

ينحدر نحو الحولة، ويلتقي من يساره بنهري بانياس واللدن مجتمعين. وفي المقعر تكونت بحيرة الحولة الضحلة والمستنقعات من حولها، قبل أن يجففها الصهاينة المستعمرون. ويمتد سهل الحولة بدءاً من شمال البحيرة السابقة على طول 20 كم وعرض 8 كم.

تنحدر مياه النهر بعد الحولة انحداراً شديداً إلى طبريا حتى يبلغ مستوى بحيرة طبريا 210 م عن سطح البحر. وتحتل مياه طبرية حفرة حقيقية مثلثية الشكل. ويبلغ أقصى عرض لها 12 كم، ويزيد طولها على 20 كم. كما يصل عمقها حتى 48 كم. وفي طرف حافتها الغربية تقوم مدينة طبريا التاريخية.

ومن أقصى جنوب البحيرة، وفي غربي سمخ، يخرج النهر من البحيرة العذبة الغنية بالأسماك، ويكون مبطئاً في سيره مسافة عشرة كيلومترات، حيث تحاذيه من الغرب رقعة بركانية. بينما يتلقى من الشرق مياه نهر اليرموك المنحدر من هضبة حوران والجولان الذي تجتمع إليه مياه الحمّة المعدنية.

بعد ذلك يدخل الأردن منطقة مستطيلة متسعة حتى البحر الميت، يطلق عليها اسم الأغوار، يراوح عرضها بين 25-30 كم. وأهمها الأغوار الشمالية حول بيسان، ويليها الأغوار الوسطى حتى أريحا والبحر الميت. في حين تمتد الأغوار الجنوبية إلى جنوب البحر الميت (مثالها غور الصافي).

أما البحر الميت نفسه فيؤلف حفرة عميقة. ويصل طوله إلى 76 كم وعرضه إلى 18 كم ويبلغ مستواه 392م تحت سطح

البحر. وقد دعي بالميت لانعدام الحياة فيه بسبب الملوحة العالية (أملاح الصوديوم، والبوتاسيوم، والمغنيزيوم، والبروم). أما سبب ملوحته العالية فيعود إلى شدة التبخر فيه، وقلة المياه العذبة التي تصب فيه.

2- حوض الليطاني: يعد نبع العليق في جنوبي هضبة بعلبك مبدأ للنهر الذي تجتمع إليه في الطرف الشمالي الغربي من السهل جداول البردوني وشتورة وقب الياس من الغرب، و فوار عنجر من الشرق. ويظل ضعيف الانحدار في ذلك السهل المسمى سهل البقاع، طول السهل 35 كم وعرضه 12 كم.

وعند بلدة سغبين يدخل النهر مجراه الأوسط، ويشتد انحداره ويتعمق واديه حتى يبلغ مرجعيون. وترفده ينابيع جديدة في هذا الجزء مثل مياه نهر مشغرة. ثم يبدأ بالدخول في منطقة جبل عامل، وينفذ منها بواد عميق إلى السهل الساحلي، ويأخذ اسم القاسمية ويصب في البحر إلى الشمال من صور بـــ10 كم.

3- حوض العاصي: هو ثالث الأحواض اتساعاً في بلاد الشام بعد حوضي الفرات والأردن، ويتألف واديه من عدة أقسام رئيسة:

القسم الأول: وفيه المجرى الأعلى، ويشمل القسم الشمالي وادي البقاع، وينتهي ببحيرة حمص. وتعد ينابيع اللبوة مبدأ للنهر في شمالي هضبة بعلبك على ارتفاع 900م. وبعد أن ترفده ينابيع عين الزرقا، عند مغارة الراهب، يأخذ صفة نهر فعلي، إلى أن يدخل بحيرة حمص على ارتفاع 500م.

ولقد تكونت بحيرة حمص أو بحيرة قطينة أمام حافة بازلتية، باتجاه شرق – غرب فتجتمع المياه أمامها على طول أكثر من عشرة كيلو مترات، وعرض ستة كيلو مترات، وأعماق تصل إلى عشرة أمتار.

القسم الثاني (المجرى الأوسط): يبدأ بانحدارات سريعة فوق الجنادل البازلتية وفي مجرى قليل العمق، ولكن ما إن تنتهي المنطقة البازلتية عند الغجر شمال حمص حتى يجري فوق طبقات كلسية لينة سهلة الحت فيصبح واديه عميقاً، ويمر بالرستن. ويستمر عمقه عبر هضبة حماة، فيمر بحماة وينتهي عند اللطامنة أو شيزر، إلى سهل العشارنة فوادي الغاب الذي جففت مستنقعاته. ثم سهل الروج الذي يعد امتداداً لوادي الغاب.

القسم الثالث (المجرى الأدنى): يمتد من قرقر حتى خليج السويدية، ويبدأ بانحدارات سريعة وواد عميق حتى دركوش. ثم يتجه النهر نحو الشمال الغربي والغرب، فالجنوب الغربي مستديراً حول القصير، داخلاً، عند إنطاكيا، في المقعر الالتوائي بين الجبل الأقرع وسفوح الأمانوس. ويشتد هنا انحدار النهر، وتزداد مياهه بفضل ما يرفده من مياه العاصي الصغير قبل إنطاكية وهي المياه الخارجة من بحيرة العمق.

4– أما حوضة العمق: فهي سهل مستدير تعادل مساحته مجموع مساحة الغاب والروج، وقد تألفت من لحقيات الأنهار والأودية، والينابيع المنحدرة من الجبال المحيطة، ولا سيما النهر الأسود وعفرين.

السلسلة الشرقية والهضاب والسهول الداخلية[4]:

تقع إلى الشرق من أودية التصدع، وتمثل مناطق الترسبات البحرية والقارية التي توضعت بصورة شبه أفقية فوق القسم الشمالي للعتبة الشامية، وعكست ميل هذه العتبة إلى الشمال الشرقي، في تدرج أعمارها من الأقدم في الجنوب الغربي إلى الأحدث في الشمال الشرقي (الفرات)، وقد تعرضت تلك الترسبات لحركات التوائية ذات محاور جنوبية - غربية، شمالية - شرقية، أو غربية — شرقية، أو أصيبت بانكسارات واندفاعات بركانية.

الأقسام الرئيسة: أهم هذه الأقسام من الجنوب إلى الشمال:

أ- هضبة معان: تشرف غرباً على الأغوار الجنوبية ووادي عربة ورأس حفرة خليج العقبة، كما تمتد شرقاً حتى رؤوس الأودية المنحدرة إلى وادي السرحان. يزيد ارتفاع حافتها الغربية المسماة جبال الشراة على 1200 م. وتفوق بعض قممها على 1800 م وتنتشر الصخور الرملية على نطاق واسع في جنوبي الهضبة، وفي الأودية المنحدرة غرباً، ومنها وادي موسى الذي تقع فيه البتراء. أما ما تبقى فتنتشر فيه الصخور الكلسية.

تلحق بجبال الشارة، جبال الكرك أو مؤاب في شمالها؛ يفصلها عنها وادي الحسا. وتمتد حتى وادي الموجب وتتوسطها مدينة الكرك.

---

[4] فيما عدا جبل حرمون، وجبال لبنان الشرقية، وجبل الكرد، فإن جبال السلسلة الشرقية تندمج مع هضاب الداخل في الشرق.

ب- هضبة مأدبا وعجلون: تقع بين حفرتين عميقتين هما: واديا الموجب في الجنوب، واليرموك في الشمال، ويتوسطها نهر الزرقاء، حيث تدعى الهضبة حوله هضبة السلط، وفي شمالها تقع هضبة عجلون التي يبلغ ارتفاعها 1250 م، ولذا تمتعت تلك الجهة برطوبة وافرة، وأمطارها هي الأكثر غزارة في منطقة شرقي الأردن، ولهذا السبب كثرت حراجها وخصبت ترتبها، وانتشرت مدنها على مساحات أوسع (إربد، أم قيس، عجلون، جرش).

ج- هضبة حوران البركانية: وهي أوسع كتلة بركانية في بلاد الشام. يحدها وادي اليرموك في الجنوب. وتشمل، جغرافياً، كلاً من: الجولان في الشمال الغربي منها، وحوران في الوسط، وجبل العرب في الجنوب الشرقي. وقد تأثر القسم الشمالي الغربي منها بالرطوبة والأمطار، بينما ظلت المناطق الجافة في الشرق والجنوب الشرقي قليلة الأمطار، وعرة الأراضي. ومعظم أراضي هذه الهضبة يراوح ارتفاعه بين 600م و900م باستثناء كتلة جبل العرب، فهي تزيد على 900م وتبلغ في بعض القمم البركانية 1800م تل غينة.

د- الجبال الوسطى وحوضاها: تمتد من هضبة حوران وجبل حرمون في الجنوب الغربي حتى هضبة حمص في الشمال الشرقي، ويحدها من الغرب وادي البقاع، ومن الشرق هضبة الحماد وأهم أجزائها:

1- جبل حرمون: وهو أعلى جبال السلسلة الشرقية، إذ ترتفع قمته الجرداء إلى 2814 م يشرف على منخفض الحولة في الجنوب الغربي، وحوضة دمشق في الشمال الشرقي، وتكلله الثلوج في الشتاء والربيع، لذا لقب بجبل الشيخ، ويعد خزاناً مائياً ضخماً يغذي الأردن واليرموك والأعوج وغيرها. وبسبب شدة منحدراته يقل سكانه، فهم يتجمعون في بعض وهداته أو بعض مرتفعاته التي لا تزيد عن 1500 م (عرنة، مجدل شمس، حاصبيا، راشيا).

2- جبال لبنان الشرقية: تقع على امتداد جبل حرمون إلى الشمال الشرقي. وتبدأ هذه السلسلة بجبل الشقيف المطل على حفرة الزبداني من الشرق 2424م، وتبلغ أقصى علوها في طلعة موسى 2629م، وتحافظ على ارتفاعات كبيرة (حليمة قارة 2464 م) ثم تنخفض وتندمج بهضبة حمص عند حسية، وهي قليلة الأمطار والغابات، وقليلة السكان لقلة الينابيع.

3- جبال القلمون: تقع إلى الشمال الشرقي من دمشق، وهي مجموعة من ثلاث سلاسل جبلية التوائية، تفصل بينها أودية من المنشأ نفسه، ولكنها تتسع أحياناً، فتأخذ شكل هضبة بين تلك السلاسل.

فالسلسلة الأولى تطل مباشرة على منخفض الغوطة، وتتصل بالجبل الشرقي أكثر من 1400 م. ويلي السلسلة الأولى غرباً، هضبة القطيفة وجيرود. والسلسلة الثانية تتصل بمرتفع دير عطية،

حيث تبلغ أقصى ارتفاع لها وهو 1850 م. أما السلسلة الثالثة، فتمتد إلى الغرب من صيدنايا ومعلولا والنبك. وفي غربها تقوم هضبة عسال الورد المحاذية مباشرة لجبال الشرقية. وتتصل هذه الهضبة الثالثة بالهضبة الثانية عند يبرود، وتكوّنان معاً أكبر حوض مائي في القلمون الذي إليه يعود الفضل في قيام غوطات: يبرود، النبك، دير عطية، وسط بقاع جرداء.

4- حوضة دمشق: تقع عند التقاء سلاسل الحرمون بالقلمون؛ فالجبال تحيط بها من الغرب والشمال (قاسيون وفروعه) وكتلة حوران البركانية في الجنوب، ودير القلمون على أطراف البادية في شرقها. ومع أنها وهدة بين الجبال، إلا أنها تظل جزءاً من هضبات الداخل، لأن ارتفاعها يراوح بين 600م-700م فوق سطح البحر في انحدار من الغرب إلى الشرق حيث تنتهي شرقاً بأرض مغلقة هي أرض العتبة والهيجانة، وتقسم هذه الحوضة إلى قسمين: غربي مرتفع يسمى الغوطة، وشرقي منخفض يسمى المرج مساحته ضعف مساحة الغوطة.

تُروى الغوطة بمياه نهر بردى الذي ينبع من سهل الزبداني عند ملتقى جبال لبنان الشرقية بحرمون. ويجري عبر واد ضيق شديد الانحدار. وقد وزع الإنسان في الماضي مياهه في سبعة فروع تتشعب في جميع أنحاء الغوطة، وينتهي المجرى الأصلي للنهر بسبخة العتيبة.

أما غوطة النهر الأعوج فهي التي تدعى غوطة الكسوة، وهي غوطة صغيرة نسبياً، ولكنها شبيهة بغوطة دمشق، تفصل بينها

بعض التلال البركانية. ويغذي هذه الغوطة نهر الأعوج الذي سميت باسمه. وهو ينبع من السفوح الشرقية لجبل الحرمون، ويجري بانحدار شديد حتى يبلغ السهل فيقل انحداره وتكثر تعرجاته.

هـ- الهضبة الشمالية الغربية: وهي التي يطلق عليها اسم هضاب حمص وحماة وحلب، والتي تمتد من جنوبي حمص حتى هضبة عينتاب في أقصى الشمال، يحدها شرقاً وادي الفرات وأطراف الجبال التدمرية، ومن الغرب وادي العاصي الأوسط والأدنى. وتعد ضمنها مجموعة الالتواءات الجبلية السطحية (حوالي 1000م) كجبل الزاوية، وجبال حارم وسمعان وكلس، وتغلب عليها الصخور الكلسية، من الزمن الثالث، مع مساحات هامة من الصخور البركانية التي تعود إلى هذا الزمن، والممتدة من شرقي حماة إلى جنوب شرقي حلب (جبال: العلا، وشبيب، والأحص).

ويلاحظ أن القسم الشمالي من الهضبة ذو انحدار عام من الشمال إلى الجنوب، وينتهي إلى مجموعة من المنخفضات المغلقة، ويكون معدل الهبوط من ارتفاع 900 م عند عينتاب، إلى 350م في المنخفضات. وتتمثل تلك الانحدارات والمنخفضات في وادي الذهب وسبخة الجبول، ووادي قويق، ومنخفض المطخ، ثم منخفض الروج.

بادية الشام

تعد البادية أوسع المناطق الداخلية مساحة، وتنقسم إلى قسمين رئيسين:

جنوبي غربي يدعى الحماد، وشمالي شرقي يدعى الشامية.

1- الحماد:

يرتفع في الجنوب 800م، وينحدر ببطء شمالاً حتى 560م، وتبدو آثار الحتّ المائي فيه ضعيفة جداً، تتمثل في بعض الأودية المسطحة التي لا يتجاوز عرضها الخمسين متراً. وعمقها ثلاثة أمتار، كما توجد فيه بعض الحفر المغلقة الصغيرة، وغالباً ما يتفق وجودها مع الصدوع والانكسارات الصغيرة.

2- الشامية:

تنفصل عن الحماد بجرف يراوح علوه بين 20 و60م، وينخفض باتجاه الشرق؛ ويتميز هذا القسم عن سابقه بكونه أشد انحداراً باتجاه وادي الفرات، كما تكثر فيه الأودية الطويلة نسبياً والعميقة، وتكثر فيه المجمعات الحصوية المحمولة من هضبة الحماد؛ وفي بعض أجزائه توجد آثار الحتّ الكارستي المتمثل بالمغاور والحفر، ومن أوديته: وادي حوران المار بالرطبة، ووادي المياه، ووادي الصواب قرب البوكمال. وتلتوي الطبقات في القسم الشمالي الغربي من البادية مشكلة جبالاً يراوح ارتفاعها بين 800 - 1350م ويطلق عليها اسم الجبال التدمرية وهي:

الجبل الشرقي: الممتد بين الضمير وتدمر (جبل زبيدة 1350 م، ويمثل السلسلة التدمرية الجنوبية. أما جبال البلعاس، والشاعر، والبويضة، ثم البشري الاسفلتي، فتمثل الجبال التدمرية الشمالية.

وبين الجبال التدمرية الشمالية والجنوبية، تمتد مقعرات التوائية تتمثل في حوضة تدمر الشبيهة بحوضة دمشق.

أما مناخ البادية، فمتوسطي - صحراوي، تشتد حرارته صيفاً لعزلته عن البحر، ويكون شتاؤه بارداً، لانفتاح البادية على الرياح الشمالية الشرقية القارسة.

وفي جميع البادية لا يسقط مطر يتجاوز 200 مم. ومع ذلك لا يمكن القول إن البادية محرومة من الغطاء النباتي، فإلى عهد قريب كانت تغطي أشجار البطم مساحات واسعة من جبالها في البلعاس وغيره، وما عدا ذلك تنقسم نباتات البادية إلى قسمين:

القسم الأول حولي: ينمو في مساقط المطر كل عام، ويشمل الأزهار والأعشاب، مثل الخزامى والعرار والأقاحي.

القسم الثاني: يشبه شجيرات صغيرة جداً كالأشنان، والحرمل، والشيح، ولا تخلو البادية من بعض الفطور الهامة كالكمأة ذات القيمة الغذائية الكبيرة.

أما أهم الحيوانات في البادية فهي الطيور مثل: القطاء، والحجل، والجوارح كالصقور والبواشق. وتكاد تنقرض منها بعض الحيوانات السريعة العدو كالغزال والأرنب.

تضاريس ما بين النهرين أو الجناح الشرقي للهلال الخصيب

يشكل هذا الجناح، كما أشرنا سابقاً، ملتقى المنحدرات، فالبادية تنحدر أطرافها الشرقية باتجاه وادي الفرات تدريجياً؛ والجبال الشرقية المتفرعة من جبال زغروس والهضبة الإيرانية

تنحدر باتجاه الدجلة، ومنها تنحدر روافد هذا النهر. وينقسم السطح في ما بين النهرين إلى ثلاثة أقسام:

القسم الشمالي حتى بغداد ويعرف باسم الجزيرة.

القسم الجنوبي ويعرف بالسواد، وهو سهل سنعار قديماً الممتد من بغداد حتى الخليج، حيث ملتقى مياه النهرين والدلتا. أما إقليم عربستان فيشكل امتداداً طبيعياً للمنطقة الدلتاوية الجنوبية.

أمّا القسم الثالث فهو المنطقة الجبلية في الشمال والشرق.

1- تضاريس القسم الشمالي أو الجزيرة

تعرف الجزيرة بأنها المنطقة المحصورة بين نهري دجلة والفرات، فهي تمتد من سفوح طوروس الأرمنية في الشمال. ويعد حوض دجلة في الجزيرة قليل الأهمية لعمق وادي النهر، وشدة انحداره، وطابعه الجبلي بوجه عام، لكن حوض الفرات في الجزيرة هو الذي يمثل الأرض المنتظمة الانحدار من جبال ماردين التي يتجاوز علوها 1200م، ومن هضاب أورفة أكثر من 500م حتى وادي الفرات مكوّناً بذلك أوسع السهول اللحقية، ولا يقطع هذا الانحدار المنتظم غير محدب طوال العبا، وعبد العزيز، وسنجار.

ويمثل جبل عبد العزيز اتجاهاً شرقياً - غربياً، ويتألف من الصخور الكلسية، ولكن قمته لا تتجاوز 920م. وهنالك جبل يماثله في الاتجاه هو جبل قره شوق إلى الغرب من دجلة بين ديريك والقحطانية. أما سنجار فهو جبل منعزل يبدو كجزيرة كبيرة وسط السهوب، متوسط ارتفاعه 1200 م.

غير أن الميزة الطبيعية الأساسية للجزيرة هي تربتها الغنية الرسوبية القارية واللحقية الواسعة الانتشار، التي تتركز إلى الشمال من خط محدب (طوال العبا، عبد العزيز، سنجار) على طول يتجاوز 300 كم بين الغرب والشرق، وعرضه 40 كم بين الشمال والجنوب، وخاصة في أعالي حوض الخابور بالدرجة الأولى، وحوض البليخ بالدرجة الثانية. وتمتد هذه التربة جنوباً مع واديي النهرين المذكورين لتتصل بوادي الفرات.

ويطلق على تلك المساحة الواقعة إلى الشمال من خط محدب (طوال العبا، عبد العزيز، سنجار) اسم الجزيرة العليا، وتجتازها الجداول الكثيرة، أما إلى الجنوب من ذلك الخط فتمتد الجزيرة الجنوبية حتى الخط الواصل بين سامراء على الدجلة وهيت على الفرات. وهي أوسع مساحة من الجزيرة العليا، وأكثر تموجاً. ولكن الجفاف جعلها تتغطى بتربة رقيقة رملية وحصوية مع غلبة الصخور الجصية. وهي من هذه الناحية تشبه البادية، ولذا أطلق عليها اسم بادية الجزيرة. ويلاحظ أنها تخلو من المرتفعات، إلا من بعض التلال التي لا يتجاوز علوها 100 م فوق ما حولها. واذا استثنينا واديي الخابور والبليخ، فإن الكثير من المنخفضات ومغلق يتحول إلى مماحل أو سباخ إثر الأمطار، ولا سيما في شرقي الخابور مثل الطويلة والبوارة. ومن هذه المنخفضات منخفض وادي الثرثار في الشمال الغربي من سامراء قرب الدجلة.

ويعد حوضا الخابور والبليخ، الحوضين الرئيسين اللذين تعتمد عليهما الجزيرة. ينبع الخابور من رأس العين، من نبع كبريتي غزير، ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي حتى الحسكة، ويتلقى مياه الشمال الشرقي للجزيرة العليا، وأهمها جغجغ وخنـــزير وهي ترفد الخابور مجتمعة بعد خروجها من وادي الرد. ولا يلبث الخابور، بعد الحسكة، أن يأخذ الاتجاه الجنوبي متعرجاً ضمن واد صغير حيث يلتقي بالفرات قرب البصرة.

أما البليخ فينبع من عين العروس في جنوب غربي تل أبيض، وروافده قليلة ويصب في الفرات شرقي الرقة.

2- تضاريس القسم الجنوبي من الجزيرة أو الأراضي الرسوبية أو سواد العراق أو سهل شنعار قديماً

يمتد هذا القسم من سامراء على الدجلة ومن هيت على الفرات، ويشمل كل الأراضي الواقعة بين نهري الفرات ودجلة حتى الخليج.

تكثر الأهوار والمستنقعات في هذا القسم حيث يكون مستوى دجلة والفرات أعلى من الأراضي المجاورة فيسقيانها دون أية واسطة رافعة (وتعرف هذه الأراضي بأراضي السيح)، وتتميز بكثرة المجاري النهرية القديمة المهجورة، وآثار عمل الإنسان. وفي هذا القسم تلتقي مياه الرافدين دجلة والفرات، في شمال خليج البصرة، فيشكلان معاً ما يعرف بشط العرب الذي ترفده من الشرق مياه نهر قارون الذي ينبع من الهضاب الشرقية في إقليم

عربستان (بشتكويه وبختياري) التي تفصل هذا الإقليم عن إيران. كما ينحدر منها روافد هذا النهر (الكرخة) باتجاه مدينة الأحواز نحو شط العرب، حيث تتشكل دلتا مشتركة. كما أن بعض المجاري المائية في الجنوب تصب منفصلة في الخليج. ويعتبر إقليم عربستان الامتداد الطبيعي للمنطقة الدلتاوية، ويمتد في شرقي الخليج جنوباً حتى مضيق هرمز.

3- تضاريس القسم الثالث من الجناح الشرقي للهلال الخصيب، (المنطقة الجبلية):

يقع هذا القسم في الزاوية الشمالية والشمالية الشرقية، ويتألف من الأقسام الجنوبية لجبال زغروس والسلاسل المتفرعة عنها نحو الغرب والممتدة إلى جنوب بحيرة وان في هضبة أرمينيا، وتقسم هذه الجبال إلى قسمين:

آ- **الجبال الشمالية:** تتألف من ثلاث سلاسل جبلية متوازية، وتتدرج في الانخفاض من الشمال إلى الجنوب من 300 إلى 1000 م، وتمتد في الانخفاض من الشرق إلى الغرب بانحراف نحو الجنوب الشرقي، وتخترقها أودية طولية وعرضية خصيبة تجري فيها الروافد العليا لنهري الزاب الكبير و خابور دجلة ومن جبالها الهامة بيريس و عقرة.

ب- **الجبال الشرقية:** هي الجبال المتاخمة لجبال زغروس، وتتألف من سلاسل التوائية متوازية تتم أقواس السلاسل السابقة، ولكنها ذات اتجاه شمالي غربي - جنوبي شرقي، وتنقسم أيضاً إلى

ثلاث مجموعات جبلية تتخللها الأودية الطولية والعرضية التي تجري فيها مياه نهري الزاب الكبير و الزاب الصغير، ومياه الشط العظيم وروافده.

فالمجموعة الأولى هي: جبال روست في أقصى الشمال الشرقي ويزيد علوها على 3607 م وهو أعلى ارتفاع في الجناح الشرقي.

أمّا المجموعة الثانية فأهمها: الجبال الممتدة شرقي السليمانية، ويبلغ معدل ارتفاعها 2500م.

وأمّا الثالثة: تتألف من عدة جبال بين السليمانية وكركوك، ويرواح ارتفاعها 2000 و1500 م.

وإذا انحدرنا من هذه الجبال نحو نهر دجلة شاهدنا حافة تلالية جرداء، لها نفس اتجاه المجموعات المذكورة تشكل جبال حمرين ولا يزيد ارتفاعها على ثلاثمئة متر، وتشكل هذه التلال، عند الجانب الأيمن من النهر، جبل مكحول وهي تنخفض وتختفي تدريجياً في الأراضي اللحقية.

وادي الفرات

يمثل وادي الفرات ظاهرة طبيعية بارزة في مجراه الأعلى والأوسط إذ يلتقي انحدار السطح للعتبة السورية بالالتواءات الطوروسية الأرمنية.

وقد كان وجود النهر نتيجة طبيعية لهذا الالتقاء وقد تشكل النظام النهري للفرات ودجلة في الزمن الرابع.

يبدأ المجرى الأعلى للنهر من ملتقى عدة ينابيع في هضبة أرض روم الأرمنية، فيجري في واد ضيق عميق، ويأخذ اتجاهاً جنوبياً غربياً ثم ينعطف نحو الجنوب بعد اجتيازه جبال طوروس الداخلية باتجاه جرابلس، حيث يرفده نهر الساجور من الشمال الغربي، وعندها يبدأ المجرى الأوسط حتى هيت، وهنا يتغير عرضه فيراوح بين 5-12 كم. ويلاحظ أن أكثر أراضي الوادي مؤلفة من صخور كلسية وحوارية حديثة، تخللتها بعض الاندفاعات البركانية بين السبخة ودير الزور. وعند الرقة يدخل الوادي منطقة الجص اللينة ويستمر عريضاً.

وتدل المصاطب النهرية الأربع فوق السهل الفيضي الراهن على مدى الحت الرأسي للنهر (60 م على الأقل). وتبدو حافات الوادي على يمين النهر شاهقة في كثير من المواضع على عكسها عند يساره، وتجتاز السهل الفيضي في قاع الوادي مجاري النهر المتعرجة وتنتشر في جزره أشجار الحور الفراتي، وفي الجهات البعيدة من المجرى ينمو السوس وبعض النباتات الشوكية.

أما المجرى الأدنى للنهر فيبدأ بعد هيت، وهنا تزول حافات الوادي ويمر بالرمادي ويقترب من بغداد فلا يبعد عنها أكثر من 35 كم ويعلو عن دجلة عندها نحو خمسة أمتار. وعند المسيب يخرج من النهر شط الحلة ثم يستمر في سيره جنوباً تحت اسم شط الهندية الذي يمر بالطرف الشمالي لهور الحمار، ويلتقي أخيراً مع الدجلة عند كرمة علي بعد أن يكون قد قطع 2800 كم.

الدجلة

ينبع من جنوب وجنوب غربي الهضبة الأرمنية، غير بعيد عن منابع الفرات، من منطقة تلالية قليلة الارتفاع في أعالي الجزيرة (بمعناها الجغرافي التاريخي) ويمر بهضبة ديار بكر في اتجاهه شرقاً، وتجتمع إليه بعدها مياه كثيرة، ولكن أهمها الرافد الكبير والغزير الآتي من الشرق، وهو نهر بوتان صو. وعلى أثر ذلك ينحرف النهر باتجاه الجنوب الشرقي حتى المصب. ولكنه يجتاز في الشمال سلاسل من الجبال والأودية الطولية، مؤلفاً فيها على التوالي خوانق وسهولاً ضيقة، ويتلقى في نهايتها رافداً يدعى الخابور أيضاً في شمالي فش خابور.

قبيل الموصل، ينتهي الوادي الأعلى للنهر، ويبدأ واديه الأوسط الذي يستمر حتى سامراء، وعندما يصل النهر إلى بغداد يكون قد تلقى أهم روافده وهي على التوالي: الزاب الكبير والزاب الصغير والأدهم أو الشط العظيم ثم ديالي في جنوبها، وجميعها تنحدر إليه من الجبال الشمالية الشرقية عبر الخوانق والأودية الطولية. أما بعد ديالي فلا يلتقي به أي رافد، بل ينشر مياهه على الضفة اليسرى في مستنقعات باتجاه نهر الكرخه المنحدر إليها أيضاً من جبال بشتكويه ثم يمر بالكوت ثم العمارة، وبعدها أيضاً ينشر أجزاء من مياهه باتجاه الأهوار الأخرى قبل أن يخرج منها بمجرى موحد. ويبلغ طول دجلة 1800 كم وهو نهر جبلي أكثر انحداراً من الفرات، وأشدّ حتّاً، وأكثر طمياً.

الفصل الثالث
البيئة الطبيعية

الإقليم

إن الصفة السائدة في إقليم الهلال الخصيب هي تناوب فصل ممطر يبدأ في منتصف تشرين الثاني حتى نهاية آذار، مع فصل جاف يشمل بقية السنة. والسبب في ذلك هو موقع هذه البلاد بين منطقتين مختلفتين تماماً في درجة هطول أمطارهما وهما: منطقة الرياح التجارية الجافة أو الأرض الصحراوية الإفريقية في الجنوب، ومنطقة الرياح الغربية في الشمال. وهذه الرياح المحملة بالرطوبة هي التي تشكل في فصل الشتاء الرياح السائدة في سورية، أما في الصيف فنجد أن درجة الحرارة تكون في جنوب سورية مرتفعة لأنها أقرب إلى منطقة الحر في شمال خط الاستواء، وهي تقل كلما اتجهنا شمالاً.

ويلعب اتجاه الجبال الموازي لساحل البحر في كل من السلسلتين الغربية والشرقية دوراً بارزاً في اختلاف كميات الأمطار بين الغرب والشرق، إذ إن هذه الجبال تتلقى الرياح المحملة بالرطوبة شتاء، فتبرد تلك الرياح بفعل اصطدامها بها وارتفاعها، فيتكاثف بخار الماء أمطاراً فوقها، في الوقت الذي تحول فيه هذه الجبال دون توغل الرياح الممطرة إلى الداخل لأنها تعترض طريقها. لذلك فالأمطار تقل كلما ابتعدنا عن البحر باتجاه الشرق، باستثناء الجبال الشمالية والشرقية التي يساعد ارتفاعها ومجاورتها لسلاسل الإطار الجبلي الشاهق في طوروس وزغروس على تلقي كميات وفيرة من الأمطار، رغم ابتعادها عن البحر. كما تقل هذه الأمطار كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب.

وفي فصل الشتاء أيضاً تنتشر في هذه المناطق الشمالية والشرقية التأثيرات الكثيفة الباردة، بفعل تشكل الضغوط الجوية الشديدة فوق قمم آسيا الوسطى المغطاة بالثلوج مما يؤدي إلى هبوب رياح شمالية شرقية جافة وباردة تسبب الصقيع، أما في فصلي الربيع والخريف فتهب أحياناً رياح شرقية وجنوبية شرقية، وهي تدعى السموم (SIROCO).

أما تأثير مياه الأمطار على سطح الأرض وفعلها في الحتّ والتآكل فكبير، إذ إن قسماً منها يغيب في طبقات الأرض عبر الصخور الكلسية النفوذ، غير أن بعضها يتجمع في مجار تحت الأرض، ويخرج على شكل ينابيع، أما المياه التي لا تتسرب في

الطبقات الكلسية فتشكل جداول وأنهاراً، وتتحول إلى سيول، وقد نتج عن تدفق هذه السيول من المرتفعات تآكل الأجزاء العالية، وتعرية بعض الأراضي من غطائها النباتي على مر العصور.

النبات الطبيعي

يمكن أن نميز عدة مناطق نباتية في سورية:

1- منطقة السهل الساحلي، والسفوح الغربية المنخفضة: تتصف بوجود الشجيرات الدائمة الخضرة، كالسنديان، والصنوبر، والتوت، والزان، ونباتات الربيع التي تزهر بسرعة وتزول، أو يصيبها الجفاف مع حلول الصيف.

2- المنطقة الجبلية العالية: تغيب عنها أشجار المنطقة المعتدلة وأشجار النخيل، وذلك بفعل برودة الشتاء، ولا تتواجد إلا الأشجار القوية الصامدة مثل الشوح والأرز الذي يشتهر به جبل لبنان وجبال الأمانوس.

3- منطقة حوض التصدع وهضاب سورية الداخلية والشرقية: تكاد تنعدم فيها الأشجار الطبيعية، وتظهر في مواسم معينة.

4- منطقة هضاب شرقي الأردن وحوران: تتجمع فيها، بسبب ارتفاعها، رطوبة كافية لظهور المراعي.

5- منطقة البادية: تنمو فيها الشجيرات الصغيرة جداً، كما أشرنا سابقاً، كالشيح والحرمل والشنان، وتنبت الأعشاب في

موسم المطر. وينمو النخيل في واحة تدمر، وفي جنوب ما بين النهرين، في السواد، وخاصة في منطقة البصرة.

6- منطقة الجبال الشمالية الشرقية والجبال الشرقية: ذات نبات متنوع، وتبرز الغابات على السفوح الجبلية حتى ارتفاع 3000 م حيث نجد السنديان والصنوبر والكستناء والجوز في الأودية، وكذلك بعض الزيتون.

الحياة الحيوانية

ساهمت وفرة المراعي في سورية، منذ القدم، في توفر أعداد كبيرة من الأغنام والماعز والخيول.

أما عن الخيول والإبل، فكان دخولها شرقي آسيا من أمريكا، في عصور ما قبل التاريخ، عندما كانت تشكل أمريكا وآسيا قارة واحدة. ويظهر الحصان في شكله البري منذ الدور النطوفي في فلسطين، مع الكاشيين الغزاة، وانتشر في كل سورية قبل الميلاد بنحو ألفي سنة، وأعطاه الحثيون إلى الليديين، ومنهم انتقل إلى اليونان. وأدخل الهكسوس الحصان إلى مصر قبل العصر الميلادي بنحو 1800 سنة. ومن سورية انتقل إلى بلاد العرب حيث احتفظ الحصان العربي أكثر من أي مكان آخر بنقاوة دمه[5]. وكان الجمل، من أصل أمريكي أيضاً، انتقل إلى شمالي شرقي آسيا منذ ملايين السنين. ومن هناك وجد طريقه بوساطة كشمير والهند

[5] "فيليب حتي": "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" - الجزء الأول ص: 55.

حيث اكتشفت عظامه المتحجرة في شمال غربي بلاد العرب، ومنها إلى جنوب سورية.

وأقدم رسوم معروفة لهذا الحيوان، أي الجمل، ترجع إلى العصور الحجرية، وقد اكتشفت حديثاً في كلوة في شرقي الأردن. واكتشفت صورة جميلة لهجين وراكبه في تل حلف وتاريخها بين 3000 و2900 ق.م وإن وجودها لا يترك شكاً في أن الحيوان كان مدجناً. إضافة إلى الجمل والحصان توفرت في سورية حيوانات أخرى مثل البقر والكلاب والقطط. أما الحيوانات البرية التي كانت معروفة، فبينها: الضبع، والذئب، والثعلب وابن آوى، والظبي، والوعل، والغزال، والمهاة، والنعامة، وقد قتلت آخر النعامات في نهاية العقد الثالث من القرن الماضي في جبل الطبيق في شرقي الأردن. وزالت من سورية الأسود، والفهود، التي كانت معروفة حتى الغزو الصليبي.

وتوجد الأفاعي والسحليات والعقارب بكثرة خاصة في جنوب البلاد والطيور المعروفة هي: النسر، والباشق، والحجل، والقطا، والبوم.

ميزات البيئة الطبيعية

1- لقد توفرت لهذه المنطقة الحواجز الطبيعية الكبرى التي عزلتها عما يجاورها من حواجز جبلية في الشمال والشرق، وبحرية في الغرب، وصحراوية في الجنوب والجنوب الغربي. مما

حال دون الاتصال اليومي المباشر لسكانها مع الأقوام الأخرى التي تقيم في الأطراف الأخرى من تلك الحواجز.

2– هذا العزل لم يكن كلياً تماماً، فقد وفرت الممرات البرية، عبر بوابة كيليكيا وممر سيناء الساحلي والساحل الشرقي للخليج العربي، سبيل الاتصال مع الأمم المجاورة، وقيام تواصل حضاري، كان له أثره الواضح أخذاً وعطاءً.

أما الحاجز البحري فلم يقف حائلاً دون انطلاق الكنعانيين إلى الأمم البحرية، بل كان وسيلة مواصلات بالنسبة لهم، وقد غدا مسرحاً لنشاطهم التجاري والثقافي الكبير. أما الحاجز الصحراوي في الجنوب فقد أمكن لعدة موجات عربية قديمة تجاوزه خلال عدة قرون، ربما لأنه لم يكن أكثر صعوبة من المناطق الداخلية في شبه الجزيرة العربية ذاتها، حيث ضاقت المناطق المأهولة بسكانها، بفعل ازدياد المساحات الصحراوية الضاغطة، فانطلقوا منها، غير مختارين، نحو أطرافها المختلفة، وكانوا كالمد البشري الذي تتالى تارة نحو جنوب شبه الجزيرة العربية عبر مضيق باب المندب إلى أفريقيا، وطوراً نحو الشمال إلى بلاد الهلال الخصيب، أو كانوا كالمقذوفات البركانية، دفعت بهم قوى ضاغطة إلى الجوانب البعيدة.

3– لعبت هذه البيئة الطبيعية السورية، دور الحاضن المناسب لترعرع الحضارة، نتيجة لتوفر كل الشروط الملائمة للاستقرار البشري من أرض خصبة، ومناخ معتدل، وماء وفير، مما يسّر قيام

زراعة ناشطة عززت الاستقرار، ويسّر بالتالي قيام التواصل الداخلي، والتفاعل الاجتماعي، في دورة حياتية كاملة.

4- تحكم تنوع المناطق التضاريسية بتنوع النشاط البشري لكل منطقة؛ فالجبال الساحلية القريبة من البحر المتوسط غرباً، وضيق الساحل الزراعي، حدّدا شكل نشاط الكنعانيين البحري، فكانوا سادة التجارة البحرية التي مكنتهم من نشر ثقافتهم غرباً، وتحكمت بالتالي بشهرتهم في صناعة السفن.

والمنطقة الوسطى من بلاد الشام المفتوحة باتجاه الشرق حددت شكل النشاط التجاري البري للآراميين، ذلك النشاط الذي مكّنهم من جعل اللغة الآرامية أشبه بلغة عالمية، حملت معها الفكر السوري إلى الأمم المجاورة شرقاً.

أما المناطق السهلية الخصبة في سهول فلسطين، وجنوب ما بين النهرين، فقد شهدت نشاطاً زراعياً رائعاً، مع ما يرافقه من صناعات زراعية كعصر الزيتون، وطحن الحبوب، وعصر العنب لصنع الخمور، إضافة إلى صنع الأدوات الزراعية بدءاً من المعزق، وانتهاءً بالمحراث الذي طوره سكان ما بين النهرين إلى آلة حارثة باذرة في آن واحد، وذلك بإضافة كيس جلدي للبذار ذي فوهة ضيقة من أسفله، يعلق بالمحراث فتسقط حبات البذار حبة حبة مع اهتزاز المحراث.

وإلى جانب ذلك صناعة الفخار والأواني المنـــزلية، وصناعة العربات التي تجرها الخيول، للركوب ونقل الحاصلات، التي استخدمت فيما بعد في الحروب.

5- هذا التنوع في النشاط البشري ضمن البيئة الواحدة هو الذي تحكم في إدارة شكل واسع من أشكال التعاون بين مختلف المدن اجتماعياً وفكرياً واقتصادياً، وهذا ما يفسر لنا تواجد الفخاريات السومرية في وادي "نطوف" بفلسطين مثلاً.

وهذا ما يعلل، من ناحية أخرى، ذلك السعي المعرفي الموحد المتمثل في اعتماد الكتابة المسمارية السومرية في إيبلا.

وإذا نحن تأملنا بإمعان بقية الآثار الأدبية المحفوظة، ومنها الملاحم والأساطير والمعتقدات، اتضح لنا، بما لا يدع مجالاً للشك، ذلك التفاعل المدرجي (المادي - الروحي) بين أرجاء هذه البلاد المعطاء، ذلك التفاعل الذي عنه نتجت وحدة المجتمع السوري والأمة السورية الخلاقة.

الباب الثاني

التمازج السلالي في سورية عبر العصور

الفصل الأول
التمازج الداخلي العفوي

أقدم سكان سورية والعناصر الداخلة في التمازج

نستنتج مما قدمه لنا علماء الإنسان والسلائل البشرية، أن البشر توزعوا سلائل نشأت وتكونت وفاقاً لأحوال خاصة بكل منها.

وقد عاشت السلائل على الترحال في مرحلتي الصيد والرعي، إلى أن انتهى الأمر بمعظمها إلى الاستقرار في مرحلة الزراعة: منعزلة أو متجاورة. وشهدت البيئات المختلفة نوعاً آخر من الترحال تمثّل بسطو سلالة على أخرى، أو بالتجاء إحداها إلى غيرها، فنشأ عن ذلك تمازج سلالي: كرهي أو طوعي، ولم تخل من ذلك التمازج، أية بيئة على وجه الأرض.

وبيئة الهلال الخصيب هي إحدى هذه البيئات التي استقرت فيها، منذ العصر الحجري الأول، أقوام وسلالات، وجدت آثار أقدمها في قرية مريبط في جوار نهر الفرات، وفي أماكن أخرى من جنوب سورية، ووسطها، وشرقها.

كما وفدت إليها، ربما من أواسط آسيا وشمالها، أقوام عرفوا باسم السومريين، فاستقروا في جنوب بلاد ما بين النهرين منذ ما قبل 4500 ق.م، وعرف من ميزاتهم: القامة المتوسطة، وعرض الكتفين، والجبين المائل إلى الخلف، والأنف المعقوف، وبروز عظمي الوجنتين.

أما الأقوام لتي وفدت فيما بعد مثل: الآكاديين والآشوريين 3500 ق.م، ثم العموريين والكنعانيين 2500 ق.م فالآراميين 1500 ق.م، والأنباط 500 ق.م، التي يعتقد أنها جاءت من شبه الجزيرة العربية، فقد تميزت بطول القامة واعتدال ملامح الوجه.

لقد تم اختلاط الآكاديين بالسومريين، وتمازجت هذه الأقوام مع بعضها طوعاً وبالتدريج، فاختلطت دماؤها وضاعت أوجه الاختلاف بين أصولها العرقية، ثم تمازج أقوام وافدة من الشمال كالحوريين والميتانيين والحثيين والأرمن، مع سكان أواسط سوريا وشمالها، وأصبحوا جميعاً يعرفون بالآراميين. واختلطت أقوام أخرى من شعوب البحر (منها الفليستي) انصهرت بدورها في البيئة السورية التي أثبتت قدرتها على التمثل والاحتواء لكل العناصر الوافدة إليها، حتى ولو كانت أقواماً مستوطنة، كما هو

الحال بالنسبة لعناصر الغزو المكدوني، وما تلاه من استيطان يوناني، وكذلك الحال، وإن على درجة أقل، بالنسبة إلى الغزو الروماني الذي استمر زهاء ثمانية قرون، أو بالنسبة لما تلاه من مدّ بشري واسع من شبه الجزيرة العربية خلال الفتوحات، وطوال عصري الأمويين والعباسيين عندما شهدت البيئة السورية اختلاطاً واسعاً، في العصر العباسي على وجه خاص، مع العديد من العناصر الغريبة الداخلة في الإسلام المحمدي من فرس، وأتراك، وأكراد، وشراكسة وغيرهم، استمر حتى نهاية عصر المماليك، ذلك العصر، الذي شهدت فيه البلاد نوعين من الغزو: الغزو الصليبي من الغرب، والغزو المغولي من الشرق. ثم جاء الغزو العثماني في مطلع العصور الحديثة واستمر أربعة قرون.

ومن المعروف أن كل قوم من هذه الأقوام كان له دور سياسي بارز إضافة إلى الدور الحضاري، وبدهي أن حلول قوم بين أقوام أخـــرى لا يمكن أن يبدأ أو يـــدوم طويلاً دون أن يرافقه تمازج بشري أو تفاعل سلالي بالتزاوج، خاصة وأن تأسيس بعض هذه الأقوام لدول قويـــة كان يرافقه سيطرة تامـــة على معظم أرجاء البلاد.

وسيتوضح ذلك من خلال استعراض هذه الدول بالتسلسل:

1- فالأكاديون استقروا إلى جوار السومريين، وإلى الشمال من هؤلاء، في أعالي دجلة، استقر الآشوريون، ونتيجة للتفاعل الإيجابي مع السومريين والآكاديين تحضروا.

ولم يلبث الآكاديون أن بسطوا نفوذهم على السومريين، وأسسوا دولة خضع لها الآشوريون، ثم سيطرت على أرجاء سورية الغربية حتى البحر المتوسط في عهد كل من سارغون الآكادي ونارم سن.

وفي أثناء حكم الآكاديين انتشرت في ما بين النهرين أقوام كانت تقطن غربي نهر الفرات منذ 500 ق.م كان الآكاديون يطلقون عليها اسم الأموريين أو العموريين أي الغربيين. وقد أنشأ هذا الفريق من العموريين مدينة بابل التي عرفوا باسمها فيما بعد، ثم أقاموا دعائم الدولة البابلية التي نجحت في بسط سيطرتها على سومر وآكاد وآشور، ثم على كامل بلاد الهلال الخصيب وذلك في عهد الملك حمورابي العظيم.

2- وحين أصاب الوهن دولة البابليين بعد حمورابي غزتها الأقوام المجاورة كالكاشيين من الشرق، والحثيين من الشمال. ثم قامت على أنقاضها دولة الآشوريين التي ورثتها في السيطرة على كل أرجاء الهلال الخصيب أيضا، والتي قادها حرصها على بقاء حدودها مصانة إلى الاصطدام مع المصريين الذين كان همهم الأكبر أن تبقى سورية الغربية مفككة إلى عدة ممالك صغيرة ومنعزلة، ليسهل عليهم استغلالها والسيطرة عليها واحدة بعد

أخـــرى، وقـــد أدى هذا الاصطدام مع المصريين إلى اجتياحهم لمصر والسيطرة عليها، وإلى سبي يهود السامرة.

3- وخلال حكم الآشوريين انتشرت في ما بين النهرين قبيلة آرامية هي قبيلة كلدة، وقد توصل أحد رؤسائها إلى كسب ثقة الآشوريين فعينوه حاكما تابعا لهم على مدينة بابل، إلا أنه لم يلبث أن أسس في بابل حكما مستقلا عن آشور، عندما ضعفت تلك الدولة، ثم أعلن قيام الدولة الكلدانية أو الدولة البابلية الثانية التي شملت سلطتها كل الهلال الخصيب، ولقد تم، على يد ملكها الشهير نبوخذنصر، سبي اليهود والقضاء على مملكة يهوذا. وقد رافق قيام واستمرار هذه الدول الموحدة، اندماج حقيقي بين أقوام الهلال الخصيب كلها. كان هذا الاندماج أو التمازج يأخذ شكلا طوعيا في غربي سورية بين كل من الكنعانيين والآراميين، وفي شرقها أيضا بين الآراميين والعموريين، وبين كل من هؤلاء والآشوريين، أو غيرهم من سكان ما بين النهرين. يدلنا على ذلك ما قام بينهم من أشكال الحياة المشتركة بعامل التواصل، والتزاوج، والتفاعل الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وبمساعدة عاملين هامين هما:

أ- وفرة الطرق الصالحة للمواصلات والمبينة في الخريطة المرفقة.

ب- توفر الاستقرار والأمن خلال عهود الحكومات القوية.

والحق أنه قد قامت، ضمن إطار بيئة الهلال الخصيب، دورة حياتية كاملة، الأمر الذي أتيح ذلك التشابه في الصفات بين الأفراد، وهو تشابه جوهري، في العقول والأجسام. ولا نقصد بهذا التشابه تشابها سلاليا بحتا، ولكننا نقصد به ما عناه "بواس" في الإجابة العضوية على محرضات البيئة التي تحدد المتحد[6].

ذلك أن للبيئة الطبيعية تأثيرا في لون البشرة، أو أن تأثيرها أيضا في أشكال الهيئة غير السلالية، تأثير قوي جدا، فقد ذكر "بـــواس" أن البيئة تؤثر في الغالب على أشخاص مختلفين تأثيرا يؤدي إلى اتجاه واحد، بناء على أن لكل عضو "حدود سلامة" يتكيف ضمنها تبعا لمقتضيات البيئة، فيتخذ الهيئة التي تتطلبها عوامـــل البيـــئة دون أن يفقـــد خصائص وظيفته، فإذا جئنا بشخصـــين متبايـــنين إلى بيئة واحدة فقد يتشابهان في الإجابة العضوية على المحرضات البيئية، حتى أنه قد يتراءى لنا حدوث تشـــابه أشكال تشريحية متميزة ناتج عن البيئة لا عن التركيب الداخلي.

وإن أهم مؤثرات البيئة أو الأرض في تمييز الجماعات أنها أهم عامل في تكوين "شخصية الجماعة"، والسبب في ذلك هو الارتباط الوثيق بين الوراثة واستمرار التشابه الشكلي.

---

[6] "نشوء الأمم" ص: 47.

ومن إيضاح "بؤاس" نعلم أن التشابه العقلي والفيزيائي نتيجة لا سبب: انه ناتج الاشتراك في الحياة الذي يولد اشتراكا في العقلية والصفات كالعادات، والتقاليد، واللهجات، والأزياء، وما شاكل.

يقول سعادة في كتابه العلمي (نشوء الأمم)[7] "البيئة المحددة هي البوتقة التي تصهر حياة الجماعات، وتمزجها مزجا يكسبها شخصية كالشخصية التي يكتسبها البرونز من مزج النحاس والتنك والرصاص، وهي التي توجد الإمكانيات لنشوء المراكز العمرانية التي تتألب عليها قوات المجتمع، ويحتشد فيها نتاجه الثقافي، فتتكون البيئة الاجتماعية التي تصبح ذات مناعة تكمل ما نقص من الحدود الطبيعية".

ولعل سورية أفضل مثال للبيئة التي تصهر الجماعات المختلفة النازلة بها وتحولها إلى مزاج واحد وشخصية واحدة. وقد ذكرنا أن سورية كانت مأهولة في العصر الحجري الأول كما دلت البقايا المكتشفة في فلسطين وحوض الفرات، وأن جماعات شمالية كالحثيين وغيرهم قطعت طوروس وهبطت إلى سورية لتلتقي فيها بالجماعات الجنوبية الخارجة من الصحراء، فتمتزج هذه الجماعات كلها، وما أضيف إليها ممن جاؤوا من الغرب

[7] "نشوء الأمم" ص: 153.

كالفلسطينيين، بعضها مع البعض الآخر، وبقايا جماعات العصر الحجري، وتكون مزيجا خاصا.

ومع أننا نتمكن، بالأدلة الرأسية والدموية، من تقصي أصل مختلف السلالات الموجودة حاليا في سورية فإننا نرى لها طابع البيئة الخاص الذي يكسبها تشابها قويا، وتجانسا شديدا. وقد رأينا أن هذا المزيج السوري تمكن من إنشاء إمبراطورية قوية بسطت سيطرتها على مصر، مثلما رأينا مصر تبسط نفوذها على سورية، وكما رأينا إمبراطورية الفرس تبسط ظلها على سورية ومصر، ولكن لم يؤثر شيء من ذلك في تحديد البيئة — المتحد.

الحقيقة أنه ليس لأمة من الأمم أصل سلالي واحد. وهذه الأمة السورية.. أي أصل واحد لها؟ أهو الأصل الكنعاني أم الأموري؟ الكنعانيون والآراميون جاؤوا فوق طبقة جماعات العصر الحجري. أم الآشوري، أم الحثي أم الآرامي الكلداني؟! أو ليست سورية مزيجا أو مركبا معينا من هذه الشعوب مضافا إليها العرب بعد الإسلام وغيرهم؟

وإذا أخذنا الوجهة الانتربولوجية من الأصل السوري وجدناه مزيجا من مفلطحي الرؤوس ومعتدليها ومستطيليها ، كما أثبتت، كذلك، الأبحاث الأنتربولوجية أن الأصل الإنساني الوحيد للأمة السورية هو وحدة لحياة على تعاقب الأجيال، وهي الوحدة التي تتم دورتها ضمن القطر.

المزيج المتجانس أصل كاف للأمة. وهذا المزيج هو ما يعبر عنه أحيانا بلفظة السلالة. وهو المزيج الذي شهدته البيئة السورية ضمن حدودها، وكان من دلائل حصوله تشابه في العادات والتقاليد وأنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية وطرق التفكير.

الدولة الأكادية

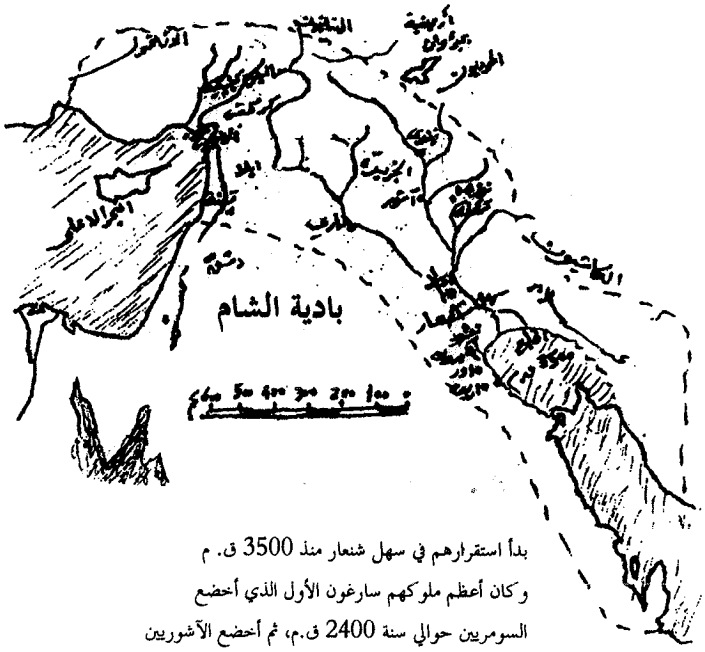

بدأ استقرارهم في سهل شنعار منذ 3500 ق. م
وكان أعظم ملوكهم سارغون الأول الذي أخضع
السومريين حوالي سنة 2400 ق.م، ثم أخضع الآشوريين
في الشمال، وتابع زحفه حتى الأناضول، ثم المدن الساحلية
السورية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. كما قام بعده
أحد أحفاده، (نارام سن) بذات مشروعه التوحيدي(2250 - 2284)ق.م
ولقب نفسه: ملك أقطار الدنيا الأربعة.

الدولة البابلية الاولى

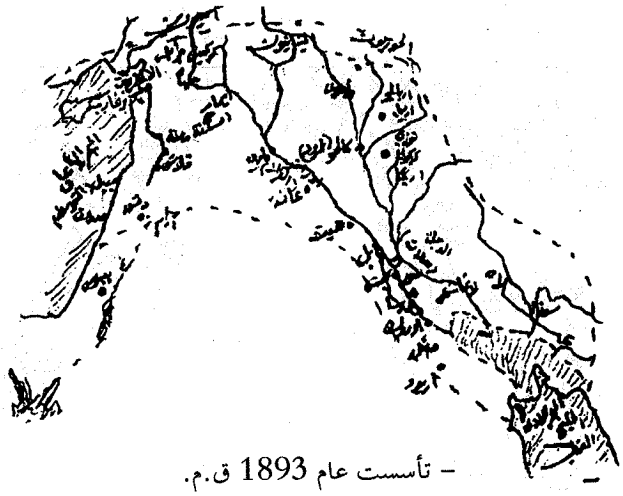

- تأسست عام 1893 ق.م.
- ودامت حتى 1594 ق.م.
- أعظم ملوكها حمورابي الذي بدأ بضم مملكة عيلام ثم نينوى وماري.
- امتدّ نفوذه من البحر الأدنى (الخليج العربي) الى البحر الأعلى (المتوسط).
- لقب نفسه بملك أقطار الدنيا الأربعة.

الامبراطورية الآشورية

612 - 1392 ق.م

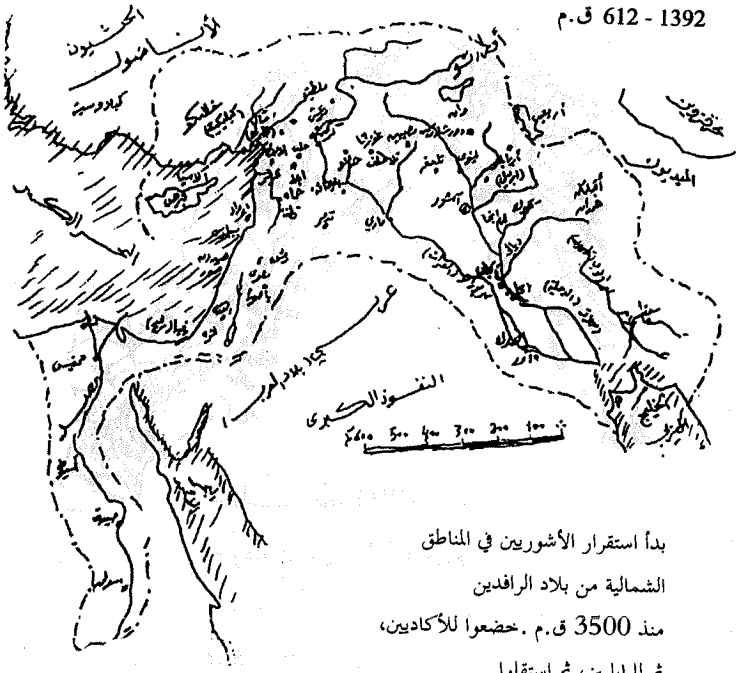

بدأ استقرار الأشوريين في المناطق
الشمالية من بلاد الرافدين
منذ 3500 ق.م .خضعوا للأكاديين،
ثم للبابليين، ثم استقلوا
وبلغوا أوج مجدهم أيام آشور بانيبال.
وكانت نهاية حكمهم
على يد الكلدانيين عام 612 ق.م.

الكلدانيون
الدولة البابلية الثانية

626 - 539 ق.م

الفصل الثاني
التمازج في عصور الغزو الخارجي

مقدمة

إذا تجاوزنا ذلك الشكل من التمازج الداخلي العفوي، إلى نوع آخر من التمازج الذي حدث نتيجة الغزو والفتوحات، وجدنا، بين هذه السلالات الغازية، مَنْ ترك بصمات محدودة الأثر انتهت برحيلها، كسلالة الكاشيين قديماً والفرس، والمغول، والصليبيين في عصور متأخرة.

وبينها من ترك تأثيراً أقوى فتأثر وأثر: كاليونان والرومان.

وبينها من بقي في المنطقة فانصهر تماماً في بوتقة الأقوام المستقرة، كالحثيين والحوريين والميتانيين.

أما من عرفتهم البلاد فيما بعد من مواطنين اعتنقوا الديانة اليهودية، فهؤلاء لم يكونوا في يوم من الأيام عبرانيين.

إلا أن تعرض العبرانيين للسبي على يد الآشوريين ثم الكلدانيين فيما بعد، قد أدى إلى تمازج العديد منهم في المناطق التي نقلوا إليها.

من هذا الاستعراض السريع للأقوام الغازية لبلادنا يتبين لنا مدى اتساع فرص التمازج الذي نتج عنه، كما أشرنا سابقاً، نموذج جديد لشعب واحد يحمل مزايا خاصة. وهذا كله يؤكد بطلان النظرية العرقية، وسخف القول بالسلالات النقية[8]. وسنتناول فيما يلي، بنوع من التفصيل المختصر ووفقاً لتسلسل الأحداث، عهد كل من هذه الأقوام التي توالت على غزو سوريا وبسط سيطرتها عليها.

أولاً- العهد الفارسي

لقد كانت نهاية آخر دولة موحدة في سورية، وهي الدولة الكلدانية أو البابلية الثانية، على يد الفرس بقيادة ملكهم كورش 539ق.م الذي أسس إمبراطورية خضعت لها، إلى جانب سورية، آسيا الصغرى أيضاً.

واستناداً إلى ما أورده ويل ديورانت[9] "كانت أولى القواعد السياسية التي تقوم عليها دولته، أن يترك للشعوب الخاضعة حرية العبادة والعقيدة. ومن أجل ذلك لا نراه ينهب المدن ويخرب

---

[8] راجع بحث المعتقدات السلالية في كتاب "نشوء الأمم" لأنطون سعادة.

[9] "قصة الحضارة" ـــ الجزء الثاني ـــ ترجمة زكي نجيب محمد.

المعابد؛ بل يبدي كثيراً من الإكبار والمجاملة لآلهة الشعوب المغلوبة، ويسهم بماله في المحافظة على أضرحتها. بل أن البابليين أنفسهم، وهم الذين قاوموه طويلاً، قد التفوا حوله وتحمسوا له حين رأوه يحافظ على هياكلهم ويعظم آلهتهم" ويذكر ديوارنت أيضاً أن الفينيقيين قد سيّروا السفن الفارسية لحساب ابنه قمبيز، وإن كانوا قد رفضوا، في أثناء حملته على قرطاجة، أن يساعدوه لكونها دولة فينيقية، الأمر الذي جعله يفقد صوابه ويتخلى عن سياسة أبيه الحكيمة.

أما في عهد دارا فقد أصبح هذا الملك أعظم الحكام الإداريين عندما أخذ يعيد تنظيم ملكه على نسق أصبح مثالاً يحتذى في جميع الإمبراطوريات.

ولعله من اليسير أن نفهم أن الغزو، وما يصاحبه من استباحة الجيش للمدن، ثم رضوخ السكان للحكم الجديد، وما يرافقه من توقف المعارضة، ثم اطمئنان السكان إلى الحكام الجدد، وما يعقبه من تعاون، كل ذلك من شأنه أن يخلق مناخاً من النماذج الذي يكون، من بعض أشكاله، التزاوج الكرهي والطوعي، والذي لا بد أن تكون له نتائجه في عملية التمازج السلالي. ومن المعروف أن السيطرة الفارسية على عموم سورية دامت قرابة مئتي عام من 539 ق.م وحتى مجيء الاسكندر المقدوني 333 ق.م. ثم عادت هذه السيطرة إلى القسم الشرقي من الهلال الخصيب (العراق) ثانية بعد ضعف الدولة السلوقية، ودامت هناك طيلة عهد الرومان والبيزنطيين

في الشرق، وحتى قيام الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي. فمن الطبيعي، والحالة هذه، أن يكون تمازجهم مع هذا الجزء، وتأثيرهم فيه، أوضح أثراً من بقية الأقسام الغربية.

ثانياً- في العهد المكدوني والسلوقي- الهللنستي

بمجيء الاسكندر المكدوني، تشهد سوريا تمازجاً أوسع نطاقاً، لم يقتصر على الأفكار والمؤسسات، بل شمل امتزاج الدم والاندماج السلالي، بناءً على خطة وضعها الاسكندر وقدم نفسه مثالاً على الرغبة في مزج الدم اليوناني بالآسيوي عموماً. وذلك بزواجه من أميرة فارسية ثم باثنتين غيرها من الأسرة الملكية في سوزا. وشجع ضباطه وجنوده أن يحذوا حذوه. فقد حلم هذا القائد بمجتمع لا أثر فيه للحواجز بين اليونان والشرق، وحاول تحقيقه. ولم ينقطع تماماً ذلك الأمل البراق الذي صوره الفيلسوف السوري الرواقي زينون فيما بعد في "جمهوريته" عن أفكار الناس منذ ذلك الحين[10]، وكان تشابه المدن (ويروى أنها زادت عن السبعين) وسيلة أخرى من وسائل تحقيق سياسة الاسكندر المدروسة حول إقامة تقارب أوثق بين الشرق والغرب. وقد استمر تدفق اليونانيين على سوريا أيضاً في عهد خلفاء الاسكندر من ملوك الدولة السلوقية التي دامت حتى قيام الاحتلال الروماني. ومن المعروف أن انتهاء حكم السلوقيين لم يحمل معه نزوح أية جماعة من السكان ذوي الأصل اليوناني.

[10] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين"، الجزء الأول ص: 258.

وفي مراحل الضعف الأخيرة من عمر هذه المملكة التي شهدت استقلال عدد من المناطق عنها، حدثت عدة اجتياحات لسوريا ومن عدة جهات:

فقد هاجمها من الجنوب بطليموس أورغيتس من مصر واحتل انطاكيا. وسار بجيوشه حتى الفرات، لكنه اضطر للعودة، وكان ذلك في عهد سلوقس الثاني 246-226 ق.م، واغتنم الفرتيون الفرصة في جنوب الخزر ليؤسسوا مملكة خاصة لم تلبث أن استقلت.

وبدأت تبرز حوالي العام 130 ق.م، سلالة عربية الأصل في الرها تعتمد، اسمياً، على فرتيا ويتسمى أكثر ملوكها باسم أبجر[11].

ونجحت قبيلة عربية أخرى في جعل شيوخها حكام دولة جديدة تتمركز حول حمص، وتتبع السلوقيين اسمياً فقط. ثم وسع الفرتيون مملكتهم لتغدو إمبراطورية من الفرات إلى السند.

أما في الغرب، فقد وقف في وجه الجيوش الفرتية، الملك الأرمني تيغراتس أوديكران وحموه متراداتس الكبير. وقد اكتسح ديكران بلاد الرافدين التي حكمها الفرتيون، وفي عام 83 ق.م كان يكتسح سوريا الشمالية وكيليكيا. وقد بنى مدينة ملكية جديدة هي تيغرانوسرتا في منطقة الدجلة العليا.

ولم يكن السوريون ميالين إلى المقاومة لأن المنازعات بين أفراد السلالة الحاكمة أنهكتهم، فرحبت المدن السورية، والمدن

---

[11] المصدر نفسه.

اليوناينة في سورية أيضاً، بالحكم الجديد وتقبلته بارتياح. وقد وصلت جيوش ديكران في اندفاعها نحو الجنوب مدينة عكا واحتلتها. و لم يتراجع ديكران ويسحب حاميته إلا عندما أعلنت روما عليه الحرب عام 69 ق.م، ثم لم تمض مدة طويلة بعد ذلك حتى تمكن مترادتس حمو ديكران من استرجاع عرشه الذي فقده في آسيا الصغرى، فسار بومبي هذه المرة إليه، وهزمه وكان ذلك عام 64 ق.م. وهذه نقطة حاسمة في تاريخ سورية، إذ انتهى في ذلك العام عهد، ليبدأ عهد جديد هو عهد الاحتلال الروماني.

إن نظرة تأمل إلى وصف الحياة، والمجتمع السوري في العصر الهللنستي، تجعلنا نقف على حقيقة التمازج خلال هذه الحقبة المديدة.

مما جاء في كتاب فيليب حتي (تاريخ سورية ولبنان وفلسطين) الجزء الأول:

كان سكان المدن اليونانية في سوريا بالدرجة الأولى من الجنود المرتزقة اليونانيين والمكدونيين الذين حصلوا على زوجاتهم من بين السكان الوطنيين، وسرعان ما تهافت المدنيون تدريجياً إلى هذه المستعمرات، كما انضم إلى سكانها، مع الزمن، سكان مولدون وأصليون واصبحوا يشكلون جماعة من التجار، والفنانين، والعلماء والعبيد...

وإذا كنا لا نرى حاجة للمضي في استعراض أسماء هذه المدن اليونانية السورية ومواقعها، فإنه لا يفوتنا ملاحظة أن أكثر هذه

المدن القديمة، ونتيجة لاندماج سكانها وانصهارهم في بوتقة البيئة، قد بدلت أسماءها اليونانية والمظاهر السطحية الهللنيية، واتخذت أسماء سورية: فمدينة بيرديا هي اليوم حلب. وخالكيس في سورية المجوفة هي اليوم عنجر. وكذلك أسماء الكثير من المقاطعات والجبال والأنهار.

ثالثاً– في العهد الروماني

كانت سورية عند ضمها إلى سلطة القائد بومبي 64 ق.م في حالة من الفوضى التي نتجت عن الحكم السلوقي الضعيف في عهده المتأخر. فكان زعماء من العرب يسيطرون على بعض المدن في الشمال، والأنباط كانوا قد توسعوا حتى بسطوا نفوذهم على دمشق، واحتل زعماء اللصوص كثيراً من المدن الساحلية الفينيقية، وجعلوا منها قواعد للقرصنة وخاصة كيليكيا، في المناطق الوعرة منها، حيث بنى القراصنة حصوناً صخرية لحماية عائلاتهم وكنوزهم، وقبل قدوم بومبي نظم القراصنة أنفسهم في قوة بحرية شملت عملياتها حوض البحر المتوسط الشرقي كله.

أدخل بومبي سورية الغربية كلها (بلاد الشام) تحت اسم واحد هو ولاية سوريا وعاصمتها إنطاكية. وإذا كان الرومان قد دخلوا الأرض السورية كجيوش، وليس على شكل جاليات وأسر مستوطنة، كما هو الحال في العهد المكدوني والسلوقي، فإن هذا لم يحد من إمكانية دخول عنصر جديد أو دم جديد في عملية التفاعل أو التمازج السلالي في سورية، بل ان الفرصة متاحة على نطاق أوسع

ليتخذ الجنود الرومان زوجات لهم من سورية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن هذه الولاية السورية وجدت نفسها جزءاً أساسياً من الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف. وقد ساد فيها النظام والسلم، و ربطت شبكة من الطرق أجزاء الإمبراطورية كلها، الأمر الذي خلق فرصة أوسع للتواصل والاختلاط وانتقال العديد من السوريين إلى روما ذاتها لشتى الأغراض كالعمل في التجارة، والمهن المختلفة، أو العمل في الفن أيضاً. والحق أنه يظهر في الأدب اللاتيني ذكر لراكبي خيل السباق من لاوديسا (اللاذقية) وممثلين من بيروت ولاعبي سيرك من صور، وراقصي الباليه من قيصرية، وعازفين على الناي من هليوبوليس بعلبك[12].

وأنشأ الممثلون السوريون فرقاً منظمة متجولة؛ ولابد من أن عدة فرق سورية عملت في روما ذاتها وكان بعضها من انطاكيا.

يصرح الشاعر الهجّاء الروماني جوفنال حوالي 60-100ق.م بلهجة غاضبة:

"لقد أخذ نهر العاصي السوري، منذ مدة طويلة، يصب مياهه في نهر التيبير حاملاً معه رطانتَه، وعاداتِه، وقيثاراتِه، وأوتارَ أعوادِه[13]".

إضافة إلى ذلك يذكر أن إنطاكية وضاحيتها دفنة كان لهما قصب السبق في حياة الترف والخلاعة، كما كانت لاوديسة

---

[12] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان" – الجزء الأول.

[13] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان"– الجزء الأول.

مركز مسرات محبباً أيضاً، يتردد عليه الأغنياء. ويمكن أن نضيف، إلى عوامل تسهيل الاختلاط والتمازج، عاملاً آخر تمثّل في منح أباطرة روما لبعض المدن السورية المميزة امتيازات المدن الرومانية، من حيث توفر كافة المرافق الهامة، وفي منح السكان الأصليين، في مستعمرات مثل بيروت وهليوبوليس، حق الرعوية الرومانية، فيحوزون مكانة ممتازة بين سكان الولايات. وزادت سياسة منح الامتيازات الرومانية لغير الإيطاليين بشكل ملحوظ عندما اعتلى تراجان الإسباني عرش القياصرة.. وبلغت هذه السياسة أوجها في 212م حين أصدر كراكلا السوري الأصل مرسومه الشهير بمنح حق الرعوية التامة لجميع السكان الأحرار في الولايات، وأصبح منذ ذلك الحين فصاعداً كل سوري مواطناً رومانياً بحكم الواقع، يحق له استلام أعظم الوظائف في الدولة إذا كان أهلاً لذلك[14].

ومع أن هذا لا يعني أن السوريين قد تحولوا عن شعورهم بأنهم سوريون، إلا أنه يعطي إشارة واضحة إلى مدى اتساع فرص التمازج بين شعوب هذه الإمبراطورية، يضاف إلى ذلك أن الرومان كانوا، منذ البداية، يستخدمون غير الإيطاليين كفرق احتياطية في الجيش. وبالتدريج أصبحت الفرق الرومانية نفسها تتألف من عدد كبير من السكان الأصليين في سوريا، وكان أفراد الجيش يصبحون بصورة آلية مواطنين رومان. وكان الجنود

[14] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان" – الجزء الأول.

السوريون، في الأحداث الرومانية، يرابطون في مختلف أقسام الإمبراطورية. وقد فتحت أبواب النفوذ السوري في روما على مصاريعها عندما نجح زوج سيدة سورية من حمص باحتلال عرش القياصرة حوالي أواخر القرن الثاني الميلادي، وكانت تلك السيدة جوليا دومنة ابنة كاهن الأكابال في حمص، أما الزوج فكان سبيتموس سيفيروس قائد إحدى الفرق في سوريا وذلك عام 193 م. وعندما توفي سبتتموس هذا في ساحة المعركة في بريطانيا 211م بقيت جوليا دومنة مسيطرة على ولديها كراكلا وغيتا وقد خلفا والدهما كإمبراطورين. وبعد مقتل كراكلا نجحت شقيقة جوليا دومنة، و تدعى جوليا ميزا، في قلب مكرينوس قاتل ابن أختها، في تتويج حفيدها لابنتها، الأكابالاس من أفاميا، ثم في تعيين حفيد آخر له هو اسكندر سيفيروس الذي قتل (235م) في فتنة ذهبت ضحيتها والدته أيضاً.

بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ شهدت روما تتويج سوريّ آخر هو فيليب الذي لقب بالعربي لأنه من حوران، ولأن عدداً كبيراً من سكان هذا الجزء من سورية كانوا يعودون في أصولهم إلى القبائل العربية التي نزحت متأخرة من شبه الجزيرة العربية.

ولعل فرص النفوذ السوري هذه في أرجاء الإمبراطورية قد خلفت نشاطاً تجارياً سورياً في أرجاء الإمبراطورية، استمر طيلة العصر البيزنطي أيضاً.

ففي العصر البيزنطي، كما في العصر الذي سبقه، كانت جميع تجارة المتوسط بأيدي السوريين واليونان.

وكما هي الحال اليوم بالنسبة للمهاجرين السوريين، فإن المهاجرين في العصر البيزنطي كانوا يستوطنون عموماً بلاد هجرتهم، إلى أمد غير محدود، وكان بعضهم يعود إلى وطنه بصحبة زوجات أجنبيات[15].

من كل ما تقدم نستطيع أن نخلص إلى أن التمازج السلالي في سورية الغربية كلها، لم يصادف ما يمكن أن يوقفه أو يحد منه طيلة العهد الروماني والبيزنطي، أما عن الجزء الشرقي من سورية ما بين النهرين الذي كان يسيطر عليه الفرس فإن فرص التمازج هناك لم تكن أقل منها في الجزء الغربي، وإن كانت تعوزنا الشواهد المفصلة حول تلك الفترة، وكنا قد عرضنا لها من قبل.

رابعاً– في العهد العربي

مع قيام الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي، شهدت سورية أوسع عمليات الاستيطان الجماعي التي نتج عنها أوسع أشكال التمازج السلالي، وأدت علاقات المصاهرة بين القبائل العربية الزاحفة مع جيوش الفتح من جهة، والسكان الأصليين من جهة ثانية، إلى اختلاط في الأنساب وإلى انصهار العديد من الجماعات في القبائل، أو انصهار العديد من القبائل في المدن.

[15] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان" – الجزء الأول.

فإذا وصلنا إلى العصر العباسي، شهدنا وفود عناصر عديدة من عرقيات مختلفة إلى المجتمع السوري: من فرس وترك، وشراكسة وأكراد، وغيرهم، كما نجد إقبالاً لدى الخلفاء والأمراء على التزوج من فارسيات أو تركيات، أو على اقتناء الجواري بأعداد كبيرة من بلدان الفرس والروم وغيرها.

كما نشهد قيام سلالات حاكمة من أصول مختلفة في أواخر حكم العباسيين. جاء في كتاب "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" للدكتور فيليب حتي - الجزء الثاني — ص 17 - ما يلي:

إذا نحن تحرينا التوسع الإسلامي محيطين بملابساته الراهنة، تبين لنا أنه كان حلقة من سلسلة من الهجرات أو من مجموعات النـــزوح... حملت الفائض من سكان البادية القاحلة إلى الهلال الخصيب وما يتاخمه من مناطقه هي أحفل بأسباب الحياة. على أن هذه الموجة الإسلامية كانت ذات طابع مميز هو الدافع الديني.

"وقد كان من اجتماع العامل الديني بالدافع الاقتصادي ما جعل الحركة أمراً لا يدفع، تخطّى بها حدود الهجرات السابقة إلى مدن بعيدة. وفي مدى عقد من الزمن، بدّل الفتح الإسلامي وجه الشرق الأدنى" ويضيف: "منذ بدء ولاية معاوية على الشام، وطيلة خلافته من بعد، كان له في شؤون الحرب والسلم من رعاياه السوريين، مناصرون شديدو الإخلاص من المواطنين الأصليين، وقد استعان بعدد منهم، فعين طبيبه السوري ابن آثال عاملاً على ولاية حمص، وكان الأخطل، وهو من تغلب، شاعر

بلاطه، وتغلب قبيلة سورية عربية الأصل، وفي الرها عمل مراراً على ترميم كنيسة مسيحية هدمها الزلزال"...

"بمثل هذه السياسة استطاع معاوية أن يكسب قلوب السوريين وأن يوطد مركز سورية في الإمبراطورية الإسلامية".

ولم تلبث دمشق أن أصبحت عاصمة لإمبراطورية كبرى تفوق إمبراطورية روما في أوج اتساعها، في عهد معاوية وخلفائه.

دمشق... التي وصفت بالفردوس، والتي يذكر ياقوت الحموي الجغرافي الشهير في القرن الثالث عشر أنه "لم توصف الجنة بشيء إلا وفي دمشق مثله" وكانت حياة الخلفاء في دمشق حياة بذخ وترف، وكانت لياليهم تحفل بالسمر ومجالس الأنس، ويبدو أن سيدات البلاط كن يتمتعن بقسط وافر من الحرية. وقد وصفت دمشق بأنها كانت ذات دروب ضيقة مسقوفة، يسير فيها الشامي بسرواله الفضفاض، وعمامته الكبيرة، وحذائه الأحمر المستدق الرأس، وإلى جانبه يسير البدوي الذي يلتف بعباءته المتهدلة، ويستر رأسه بكوفية وعقال، وإلى جانبهما قد نجد رجلاً يرتدي ملابس فرنجية، أو تعبر الطريق نساء محجبات، وتسترق غيرهن النظر من نوافذ مشبكة في بيوتهن التي تشرف على الأسواق والساحات العامة. وقد يرى الناظر، في وسط الجموع المزدحمة، رجلاً من الأشراف على صهوة جواده، وقد ارتدى عباءة من حرير.. الخ.

وفي دمشق، كما في حمص وحلب وسواهما من المدن، انقسمت المدينة إلى أحياء مختلفة، وعموماً كان الذين يرغبون بالعمل في الزراعة من العرب والبدو قليلين، ولذلك غلب عليهم التجمع في المدن.

وقد انتشرت أقوام وقبائل عربية مثل التنوخيين الذين تحولوا طويلاً في أنحاء سورية قبل أن يستقروا في لبنان في القرن التاسع الميلادي، شأنهم في ذلك شأن سواهم من الأسر الإقطاعية ؛ فبنو "عامله" انساحوا إلى المنطقة الجنوبية من لبنان بعد القرن الحادي عشر الميلادي، وكذلك بنو حمدان الذين أسسوا دولتهم في الموصل ثم في حلب في أواسط القرن العاشر، ثم بلغها بعدهم بنو مرداس.

ومما هو جدير بالذكر، أن هذه الأقوام لم تأت، ولا واحدة منها، توّاً من البادية، بل كانت ممن سبق لهم أن أقاموا في الحيرة أو سواها من مناطق الهلال الخصيب.

أما القبائل البدوية التي تسيطر اليوم على بادية الشام، فإن هجرتها إليها حديثة نسبياً. فعرب عنـــزة لم تستقر حتى مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشر، إذ لحقوا بقبائل شمّر الذين سبقوهم إليها من نجد، وما عرب الرولى إلا فرع من عنزة، وهم آخر فرع هاجر من البدو إلى سورية.

وأما البدو الذين تسللوا إلى الأرياف فقد أنشأوا فيها القرى على مراحل انتقالية من استيطان مؤقت، إلى حياة بدوية زراعية نصف مستقرة. ثم إلى حياة ريفية مستقرة.

لقد كان من استقرار العرب في المدن، أن غدت العربية لغة المدن، وكثر اختلاطهم وتزاوجهم مع السكان الأصليين.. ثم تردد أبناء الريف إلى المدن لبيع منتجاتهم، أو شراء حاجاتهم، أو مزاولة الأعمال اليدوية فيها، فرض عليهم نوعاً من الاختلاط والتمازج أيضاً، كما دعاهم إلى تعلم اللغة العربية دون أن يضطرهم إلى التخلي تماماً عن لسانهم القديم. وكذلك أهل الفكر من السكان الأصليين فقد استنسبوا أن يتعلموا العربية من أجل أن يؤهلوا أنفسهم للعمل في وظائف الدولة.

كما أقبل عدد منهم على اعتناق الإسلام المحمدي، فنشأت بذلك طبقة جديدة عرفت بطبقة الموالي، وهي طبقة القبائل المسلمين من السكان الأصليين، أي من غير العرب. وقد دأب هؤلاء على الالتحاق ببعض القبائل العربية عن طريق الولاء ليُعتبروا من أفرادها، ويُحسبوا من مواليها.

ويغلب على الظن أن الإسلام المحمدي، في أول أمره، لم يبدُ غريباً عن المسيحيين والسريان، ولا دخيلاً عليهم. بل لعله كان، بالنسبة إليهم، أقرب إلى طائفة يهودية – مسيحية جديدة، منه إلى دين جديد. لذلك كانت العلاقة بين المحمدية والمسيحية، بوجه العموم، تأخذ شكل المنافسة أكثر من شكل التعارض في المبادئ.

ولقد كتب أحد بطاركة الكنيسة الشرقية على أثر الفتح العربي، يصف الحكام الفاتحين بهذه العبارات الفياضة المشرقة، فيقول: "إن العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم في هذا

العهد، كما تعلمون، يقيمون فيما بيننا، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء، بل هم على عكس ذلك يمتدحون ديننا، ويجلّون الكهنة والقديسين، ويجودون بالتقدمات للكنائس"[16].

في العهد العباسي الذي غدت فيه العاصمةُ بغدادَ كان الفارق الحقيقي الذي ميز الخلافة العباسية هو أنها اتسمت بالسمة الفارسية، فقد طغت المراسم الفارسية على مظاهر الخلافة، وسيطرت الأفكار الفارسية على شؤون السياسة، وغلبت نسبة النساء الفارسيات في دور الحريم. وشهد هذا العصر إقبالاً أوسع على الدخول في الإسلام المحمدي؛ ونذكر على سبيل المثال أن خمسة آلاف من نصارى بني تنوخ في جوار حلب، كانوا قد عملوا بإشارة الخليفة المهدي، واعتنقوا الإسلام المحمدي، ثم نزحوا إلى جبل لبنان. وكان قد سبقهم إلى هذا المكان شيخ الأسرة الإرسلانية التي تعيد نسبها إلى اللخميين. ويُعتقد أن عدداً كبيراً من الأسر المسيحية قد اعتنق المحمدية بعد عهد المتوكل.

وهكذا وفر الفتح العسكري والسياسي مجالاً أوسع للتمازج والاختلاط بين السكان الأصليين والفاتحين الجدد.

وإذ أخذ غير العرب في الاستعراب واعتناق المحمدية، عمدوا إلى الالتحاق ببعض القبائل، كما أشرنا قبل قليل، على صورة موالٍ، ثم ذابوا فيها تباعاً، وأخذ الخط الفاصل بين العرب وغير

[16] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان" – الجزء الثاني ص: 14.

العرب، وبين المحمديين القدماء والمستجدين، في الاضمحلال، وسرعان ما سمي الجميع عرباً بلا تمييز، حتى كان عهد المماليك حيث عرف فيه سكان الحواضر (أولاد العرب).

من جهة أخرى نجد أن قيام الحرس التركي في عهد خلفاء المأمون، أول بادرة من بوادر الانحلال في الحكم العباسي، فقد غدت هذه الجماعة أشد نفوذاً من الخليفة نفسه، وأخذ نفوذ العباسيين بعد هذا الزمن ينحل شيئاً فشيئاً.

وفيما كانت الخلافة العباسية تزداد تفسخاً، كانت بعض السلالات المتنفذة الصغرى، وبعضها من أصل غير عربي، (من الترك أو الفرس) تقتطع لنفسها مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة:

1- الطولونيون: وكانت أولى الدويلات الناشئة المتصلة بسورية (بلاد الشام) دولة قصيرة العمر، هي الدولة الطولونية التي أسسها أحمد بن طولون وكان أبوه مولى تركياً، أرسل من بخارى هدية إلى الخليفة المأمون.

وقد امتد سلطان الطولونيين في عهد خماوريه بن أحمد بن طولون من برقة في ليبيا إلى الفرات في سورية. بل وإلى ابعد من ذلك إلى دجلة. وقد أقرّ الخليفة المعتمد وضع الطولونيين القائم، وذلك مقابل جعالة سنوية مقدارها ثلاثمئة ألف دينار. بل إن الخليفة خطب إلى خماوريه ابنته الجميلة قطر الندى[17].

[17] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان" - الجزء الأول.

2- الأخشيديون: أيضاً ظهرت دولتهم عقب مقاومة القرامطة على يد تركي الأصل اسمه طغج، باسم الطولونيين.

فقد حاول ابنه محمد أن يجعل من نفسه وريثاً للطولونيين فأقام نفسه حاكماً على مصر 953م، فاعترف به الخليفة العباسي بعد أربع سنوات، ومنحه اللقب التقليدي لأمراء إيران وهو الإخشيد.

وجرى الإخشيد على خطة الطولونيين من قبل، فرمق سورية الغربية بعين طامعة. وكان معظمها قد وقع في يد مغتصب مغامر هو ابن رائق[18] لكن الوفاة أدركت ابن رائق (914م) فأقرّ الخليفة للأمراء البويهيين بالسلطة على بغداد، وللإخشيد على بلاد الشام ومصر ومكة والمدينة.

3- الحمدانيون: يعودون بصلة النسب إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب، وكان ظهوره على مسرح الأحداث في أواخر القرن التاسع عندما استولى على قلعة ماردين، واستطاع أعقابه، بعد كثير من المنازعات والمهادنات مع الخلفاء، أن يبسطوا سلطانهم على المَوصل، وعلى جانب من الشمال السوري (شمالي العراق وشمالي بلاد الشام) وكان أبرزهم:

أبو العلي حسن[19] الذي استطاع 944م أن ينتزع من عامل الإخشيد مدينة حلب وإنطاكية وحمص، وأن يحصل من الخليفة

---

[18] الكندي: ص:258-291 وكذلك مسكويه ج:1 ص:414، وابن سعيد ص:37، وابن الأثير ج:8.

[19] الطبري: ج:3 ص: 1439.

على لقب سيف الدولة. وقد قام سيف الدولة بمحاولات عديدة لتحرير سورية الغربية من سلطة الإخشيديين، لكن حاكم مصر أفسد خططه، وأجبره على الخضوع لسيادة مصر، هذه السيادة التي امتدت في عهد كافور إلى جانب من كيليكيا وطرسوس، و لم يتمكن الحمدانيون من تثبيت دعائم حكمهم على شمال سورية الغربية إلا بعد نهاية حكم الإخشيديين.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن والدة سيف الدولة كردية الأصل، وقد ساعدته صلة النسب هذه في الحصول على مساعدة أخواله الأكراد عندما انتزع مركزاً أمامياً في أرمينيا. أما هو فقد اتخذ إحدى بنات الإخشيد زوجاً على أمل ألا ينازعه في ملكه.

بعد منتصف القرن العاشر بدأت جيوش فاطمية مؤلفة من مقاتلين مصريين وبرابرة في شن الغارات على سورية من الجنوب، وكذلك متعصبي القرامطة من عشائر ما بين النهرين وفارس، عاودوا اجتياحهم للبلاد من الشمال الشرقي.

ثم لم يلبث السلاجقة وسواهم من قبائل الأتراك المتمردين أن انحدروا من الشمال فغدت البلاد مسرحاً للنهب والحريق والفتك في إثر الغزاة الغائرين. وفي أواخر القرن الحادي عشر كانت أقوام من الفرنج وفئات أخرى من الصليبيين تنحدر من الشمال الغربي باتجاه الجنوب.

4- ما بين السلاجقة والفاطميين: كان من كبريات الدويلات التي نشأت على أثر تجزئة الخلافة العباسية، دولة

السلاجقة، وخلافة الفاطميين. وقد اقتسمت هاتان الدولتان بلاد الشام فيما بينها، فاستولى السلاجقة على شمالها وسيطر الفاطميون عل جنوبها، وكان الأولون من الترك، وانتسب الآخرون إلى العرب.

كان مؤسس السلالة السلجوقية زعيماً من زعماء التركمان، هو أمير قبيلة الغز من تركستان. وقد تمكن بمساعدة عشيرته البدوية من اجتياح منطقة بخارى، ثم استأنف حفيده طغرل هذه الفتوحات غرباً عبر فارس حتى وقف على أبواب بغداد 1055م، واضطر الخليفة القائم، لفرط عجزه، أن يستقبل هذا المتسلط الجديد. وقد ميز الحاكم السلجوقي نفسه بلقب سلطان.

وفي غمرة انتصاراته، عمد طغرل إلى ترحيل جموع من الأتراك والسلاجقة إلى غربي آسيا. انتشروا وأخذوا في اعتناق الإسلام المحمدي والاستعراب تباعاً.

وفي عهد ابن أخيه وخلفه "إلب أرسلان" وعهد "ملكشاه بن إلب" بلغ سلطان السلاجقة أوسع مداه ممتداً من حدود أفغانستان إلى تخوم إمبراطورية الروم في آسيا الصغرى، وفي 1070م أغار إلب أرسلان بجيوشه على الدولة المرادسية في الشمال واحتل حلب. ثم اقتحم قائد جيوش فلسطين، وهو تركماني من خوارزم، وانتزع، من يد الفاطميين، رام الله والقدس، وغيرهما من المدن حتى عسقلان جنوباً. وفي عام 1076م دخل دمشق، وضيق على أهلها وانتهب أموالهم ثم عاد "تتش بن إلب" فاحتلها ثانية بعد

سنتين. وتدفقت بعد ذلك قبائل السلاجقة الرحّل على الأناضول وشمالي سورية عقب انتصار تتش على البيزنطيين. واستطاع الأتراك أن يحرزوا موطئ قدم في آسيا الصغرى. وكان من بين الدول التركية العديدة التي أعقبت السلاجقة في آسيا الصغرى. (حوالي سنة 1300م) دولة العثمانيين، وهم، تاريخياً، فرع من الغز.

وفي سنة 1117م استولى على حلب محارب تركماني من قادة الجيش السلجوقي هو "إيل غازي بن أرطق" واتخذ مدينة ماردين قاعدة لهذا الفرع الناشئ من السلالة الأرطقية.

5- الأتابكة: في سنة 1128 م استولى على حلب محارب تركي آخر هو عماد الدين زنكي الذي جاء إليها من الموصل، وفي السنة التالية ألحقت حماة وحمص وبعلبك بسلطة زنكي، الذي كان البطل المقاوم للصليبيين، والذي انتزع منهم الرها سنة 1144 م، فاستهل بذلك سلسلة انتصارات عليهم، استأنفها من بعده ابنه نور الدين، وبعده خلفه صلاح الدين.

حين توسع الفاطميون في سورية كان حكمهم قلقاً مضطرباً، وذلك لأنه لم يكن القرامطة والسلاجقة والترك والروم وحدهم في تنازعهم عليها، بل أن المواطنين أحياناً، وأهل البادية خصوصاً، قد اشتركوا في ذلك، وأن الفوضى التي شاعت في خلافة الحاكم بأمره قد أغرت أعراب البادية، فشنوا الغارات على بلاد الشام، ففي 1023 م تمكن صالح بن مرداس زعيم بني كلاب من انتزاع حلب من يد الفاطميين، واستطاعت السلالة المرداسية أن تحتفظ

بحلب، بين شدة ورخاوة، أكثر من خمسين سنة عمدوا في غضونها إلى محالفة بني كلب، وبني طي. فحاصر الكلبيون 1025م دمشق، وأضرم الطائيون النار في الرملة.

خامساً- الغزو الصليبي وتلاقي الغرب والشرق

ما إن عبر قواد الحملات الصليبية جبال طوروس، حتى وقع الخلاف بينهم، وأخذ كل نهم يضع خططه للتوسع المحلي، فاحتل "بلدوين" الرها، وهي، آنذاك، تحت حكم الأرمن في أوائل 1038 م.

وقد عمد بلدوين إلى الزواج من أميرة أرمنية سورية، واستقر في الشمال إلى حين. أما تانكرد، وهو أحد قادة النورمانديين، فتحول غرباً ودخل كيليكيا، وسكانها كذلك من الأرمن، ومن جماعة من أصل يوناني، واحتل طرسوس وسائر نواحيها، ثم احتل نسيبه أنطاكية[20]. ودفع الكونت ريموند جيوشه في اتجاه جنوبي، مضرماً النار في معرة النعمان، منـــزِلاً الدمار بسكانها، ثم استأنف سيره في وادي العاصي محتلاً في طريقه قلعة الحصن.

وكان غود فري دي بوبون (أخو بولدوين) قد انحدر جنوباً حتى محاذاة الساحل سالكاً طريق الاسكندر وسواه من الفاتحين، وعند بلوغ عكا تحول زحف الصليبيين نحو الداخل إلى أن بلغوا هدفهم القدس. ولما دخلوا المدينة، بعد شهر من الحصار، فتكوا

---

[20] ابن الأثير ج: 10.

بأهلها على اختلاف السن والجنس بلا تمييز ولا مراعاة، وبذلك تأسست عدة ممالك لاتينية في سورية الغربية.

ولا يخفى أن بقاء مثل هذه الدول العربية كان رهناً بوصول إمدادات جديدة من المجندين بصورة متواصلة من أوروبا، وبقاء أهل سورية مفككين لا تجمعهم قيادة قوية موحدة.

لكن.. وبقيام أتابك زنكي التركي، الأزرق العينين أمير حلب والمَوصل، أخذت بوادر التوحيد والزعامة في الظهور، إلى أن اكتملت بظهور صلاح الدين الذي تفرغ لتركيز قواه ضد الفرنج، وكانت معركة حطين التي قادها معركة فاصلة، وكان القضاء على جيش الفرنج منذراً بمصير المملكة اللاتينية المحتوم.

لكن المعارك استؤنفت بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة واستمرت سنتين، وإذ أخفق صلاح الدين في الحصول على نجدة من الخليفة، فقد تحققت للصليبيين الغلبة بقيادة ريكاردوس، فاضطر صلاح الدين لتوقيع صلح معه. لكن ريكاردوس اقترح على صلاح الدين، حسماً للنـــزاع، أن تزف أخت ريكاردوس إلى الأخ الأصغر لصلاح الدين (الملك العادل) وأن تقدم عكّا والقدس هدية زفاف.

بعد وفاة صلاح الدين تبدأ الحقبة الثالثة من تاريخ الصليبيين وهي فترة التفسخ والفتن، وقد استمرت قرناً من الزمن، في الوقت الذي انقسمت فيه سورية الغربية بين بني صلاح الدين. وقد حاول الملك العادل، أخو صلاح الدين،

طيلة عهد ولايته 1199-1218م، أن يحافظ على الصلات الودية مع الفرنج بغية تحقيق السلام وتنمية الصلات التجارية مع الإيطاليين. ونشأت، بعد العادل، أسرٌ أيوبية عديدة تولت الحكم في مصر، ودمشق، والعراق، وظهرت منها فروع أخرى في حمص وحماة.

وخلال الاضطرابات التي نشبت بين فروع هذه السلالة، أخذت المدن التي كان قد احتلها صلاح الدين، نظير بيروت وصفد وطبريا، بل والقدس أيضاً (1229)، تعود تباعاً إلى أيدي الفرنج، وتخلّى الملك الكامل ابن العادل عن القدس إلى فريدريك الثاني بموجب معاهدات عقدت لعشر سنوات، لكن الملك الصالح نجم الدين ابن أخي الكامل، عمد سنة 1244 إلى استخدام مفرزة أتراك خوارزم ليعيد المدينة إلى حوزته.

على أن الفرنج لم يكن بوسعهم استغلال هذا التفسخ، لأن الشقاق كان قد دبّ في صفوفهم بعد الحملة الصليبية السادسة بقيادة لويس ملك فرنسا. ولقد غدت سورية مسرحاً عجيباً للحملات الغازية.

ففي الوقت الذي كانت فيه قبائل المغول تتوغل في سورية وتجتاح شرقها وشمالها، ثم تتقدم جنوباً، كان الأيوبيون يتراجعون أمام المماليك.

وكان رابع هؤلاء الأيوبيين، الملك الظاهر بيبرس 1226 - 1277م الذي قضى على كيليكيا الصليبية، وأوقف زحف المغول

الأول في فلسطين، واسترجع ما أخضعوه من سورية، وبسط سيطرته على كل من بلاد الشام ومصر، ليتفرغ بعد ذلك للإغارة على معاقل الفرنج محرزاً الانتصار تلو الانتصار، وأخذت المدن تسقط في يده من الجنوب إلى الشمال. وألقت أنطاكيا السلاح. وتذكر الرواية وقوع مئة ألف من سكانها في الأسر، فبيع الصبي منهم باثني عشر درهماً، والبنت بخمسة دراهم. على أن أقسى الضربات التي تلقتها الممالك الصليبية الباقية كانت على يد قلاوون الملقب بالملك المنصور، وابنه الأشرف الذي سقطت بيده عكا التي قرر سقوطها مصير المدن الساحلية القليلة الباقية. لكن أرواد صمدت إحدى عشرة سنة. وبسقوطها أسدل الستار على المشهد الأخير، كما يورد فيليب حتّي، من فصل هو الأكثر ازدحاماً بالأحداث في تاريخ الصراع بين الغرب والشرق.

ومما يورده حتّي في هذا المجال أيضاً[21]: وصف فترات التخالط مع الفئات الغازية، نود إثباته فيما يلي:

ينبغي ألا يغرب عن البال أن فترات السلم، في غضون العهد الصليبـــي، كانت أطول مدى من فترات الصراع والحرب، فكان هناك مجال واسع لنشوء روابط مودة، وصلات مجاورة بين الشرقيين والغربيين، فالفرنجي، لدى زوال الحاجز اللغوي بينه وبين المواطنين، قد بان له، لا شك، أن المسلم المحمدي ليس ذلك

[21] فيليب حتي: "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" – الجزء الثاني.

الملحد الذي كان يتصوره؛ بل هو ذو صلة بالإرث اليهودي - المسيحي واليوناني - الروماني، الذي كان لديهم أيضاً. وأن التاريخ ليحدثنا عن كثير من الصليبيين نظير روجينالد الشامبينيوني ووليم الصوري ممن كانوا يتقنون العربية. لكنه لا يشير إلى أي سوري أو عربي واحد يتكلم الفرنسية أو اللاتينية.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان في البلاد المقدسة مزارات يكرمها المسيحيون والمحمديون معاً، أما على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي فقد كان المسيحيون الغربيون، شأنهم شأن المسيحيين السوريين، يختلطون بالمحمديين بلا حرج، يتبادلون التجارة وتأمين المصالح، بل ويعمدون إلى التزاوج أيضاً، وقد تحدّر من بعض الأمهات الوطنيات ذرية جديدة عرفت بـــ"البولاني".

ويكثر بين اللبنانيين والفلسطينيين اليوم، ولا سيما في إهدن (لبنان) وفي بيت لحم، وفي مناطق عديدة غيرهما، أصحاب العيون الزرق والشعر الأشقر، وقد بقي من أسماء بعض الأسر ما يدل على أصلها الأوروبي نذكر منها: فرنجية، وصليبي، ودويهي، وبرويل، وصوايا، ويصدق ذلك على: سنجيل والرينة في فلسطين.

وقد أثبت أسامة بن منقذ (1032-1118 م) في مذكراته أوضح صورة لشاهد عيان، عن اختلاط الشعوب المختلفة، وقد كان أسامة هذا صديقاً لصلاح الدين ووثيق الصلة بالفرنج في أوقات السلم.

سادساً- الغزو المغولي

مرة أخرى تجدر الإشارة إلى أن عملية الاختلاط والتمازج بين الشعوب، لا بد أن تكون إحدى النتائج الواضحة للصراع السياسي ولتلاقي الغزاة، على اختلافهم، بالسكان الأصليين الذين هم بدورهم متحدرون، بالأصل، من سلالات مختلطة عفوياً بحكم التفاعل الاجتماعي المستمر.

أما الشكل غير العفوي من أشكال التمازج فهو ذلك الذي لا بد أن ينجم عن استباحة المدن المفتوحة من قبل الجنود الغزاة، أو عن ذلك النوع من التزاوج القسري، قصرت مدته أم طالت. مثال ذلك ما حصل عندما وجدت سورية نفسها طريحة تحت أقدام المغول، ففي تشرين الأول سنة 1400 م أبيحت حلب مدة ثلاثة أيام، إضافة إلى أعمال الفتك والنهب، وما تعرضت له دمشق كان أفظع. وقد خلف لنا ابن اغري بردي، وكان أبوه المرافق الأول للسلطان فرج، وصفاً مفصلاً للحملة على سورية بكاملها. وربما كانت هذه الحملة من أشدّ الصدمات التي عانتها المدينة، إن لم نقل البلاد بأسرها.

وكان الفاتح الجامح قد سحق الجيش العثماني عند أنقرة واجتاح بروسا وإزمير وأسر يزيد الأول. على أنه كان من حسن حظ المماليك أن لاقى تيمورلنك حتفه سنة 1404 م. ونشب، على أثر وفاته، نزاع بين خلفائه انتهى إلى فتنة داخلية استنفذت قواهم جميعاً، فأتاح ذلك للسلطة العثمانية أن تستعيد سيادتها على

آسيا الصغرى، وسهل للسلالة الصفوية، بعد ذلك، أن تفرض سلطتها على فارس.

سابعاً– العثمانيون والمماليك والصفويون

ما إن سيطر الترك على آسيا الصغرى وتوسعوا غرباً، عقب القضاء على الإمبراطورية البيزنطية، حتى وقفوا على أعتاب إمبراطورية قوية هي النمسا، فوجّهوا طاقاتهم الفتية وشهوتهم لمتابعة الفتوح وجهة أخرى تضمن لهم التفوق والغلبة. فكان لا بد لهم، والحالة هذه، من مواجهة المماليك الذين بسطوا على سورية الغربية كلها، إضافة إلى مصر والحجاز، سلطاناً افتقر إلى كل مقومات التنظيم، مما جرّ على البلاد تخلفاً شمل جميع نواحي الحياة.

هذه المنافسة بين العثمانيين والمماليك ظهرت بوضوح في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، ثم لم تلبث الدولة الصفوية الفارسية أن تورطت في هذه المشادة، في أوائل القرن السادس عشر، عندما كانت تفرض سيطرتها على الجزء الشرقي من الهلال الخصيب (العراق). وسريعاً ما نشب بين العثمانيين والفرس الصفويين نزاع انتهى بالقضاء السريع على الجيش الصفوي في العراق. وتذرع السلطان سليم الأول بما نسبه إلى المملوك قانصوه الغوري من تعاطف أو تحالف مع الصفويين ضده، فهاجم سورية سنة 1516م. وقد تم له النصر، وفتحت له المدن السورية أبوابها.

قسمّت البلاد تحت الحكم العثماني إلى ولايات، والولاية إلى سناجق، وشملت ولاية دمشق القدسَ وصفد وغزة، وأنيطت، هذه

الولاية، بجانبرد الغزال أحد قواد المماليك سابقاً، والذي كان قد خان سيده الغوري وانضم إلى الأتراك في معركة مرج دابق سنة 1516 م. وغدا الغزالي نائباً للسلطان، أما سائر الدوائر الرسمية فقد أسندت إلى حكام اتراك.

لكن الغزالي انتهز فرصة وفاة السلطان سليم (1520م) فأعلن نفسه في المسجد الأموي بدمشق حاكماً مستقلاً، وتلقب بلقب الملك الأشرف، وضرب النقود باسمه. وقد كان أمراً متوقعاً ألا يتأخر الرد العثماني طويلاً، فقد أرسل السلطان سليمان جيشاً "أباد العصاة السوريين سنة 1521 م وقتل الغزالي في القابون قرب دمشق، وكان العقاب الذي نزل بدمشق وضواحيها أشد وأدهى ممّا قاسته سابقاً من تيمورلنك. ومنذ ذلك الحين غدا اسم الإنكشارية مقروناً في ذاكرة السوريين بالدمار والإرهاب"[22].

في سنة 1724م أسندت ولاية دمشق إلى إسماعيل باشا العظم، أما في جبل لبنان فقد أبقى العثمانيون للزعماء الدروز والموارنة نفوذهم على مناطقهم مقابل جزية سنوية.

لم يتأثر السوريون عنصرياً تأثراً بالغاً بالعثمانيين، ربما لأن الترك كانوا يجيئون ويذهبون بحكم وظائفهم دون أن يستعمروا الأرض، أو لأنهم كانوا ورعاياهم السوريون غرباء روحياً، بعضهم عن بعض.

[22] صلاح الدين المنجد – (ولاة دمشق) ص: 3.

لكن تطور الأحداث إبّان العهد العثماني قد شهد مزيداً من هجرات الأقوام إلى سورية، كما شهد هجرة العديد من أبنائها إلى المهاجر المختلفة.

فقد تسرب إلى شمال سورية وجنوبها بضعة آلاف من الشراكسة، وذلك في أعقاب الحرب الروسية ـــ التركية 1877م. وقصد لبنان بضعة ألوف أخرى من اللاجئيين الأرمن زمن الحرب العالمية الأولى.

خلاصة القول: لقد شهدت بلاد الهلال الخصيب، منذ أول استقرار البشر فيها وخلال كل العصور، تمازجاً بين الأجناس والسلالات، وربما على نطاق أوسع من غيرها من البلدان.

يقول ويل ديورانت في الجزء الأول من المجلد الأول من كتاب "قصة الحضارة": "كان الشرق الأدنى في عهد نبوخذ نصر، يبدو للعين البعيدة الفاحصة، كأنه بحر خضم يتلاطم فيه خليط من الآراميين، يأتلفون ثم يتفرقون، يَستعبدون ثم يُسْتعبدون، يأكلون ويؤكلون، يَقتلون ويُقتلون إلى غير نهاية..

وكان وراء الإمبراطوريات الكبرى ومن حولها (مصر، وبابل ثم آشور والفرس) يضطرب خليط من الشعوب، منها من هو من أصل هندوروبي، ومنها من هو من أصل آسيوي. ففي بحر الأجناس المتلاطم أخذت بعض الدول الصغرى تتشكل ويكون لها نصيب صغير في تراث الجنس البشري، وإن لم يزد نصيبها هذا على أن تكون ناقلة وموصلة، ومن هذه الشعوب الميتانيون.

وكان الحثيون من أقوى الشعوب الهندوروبية القديمة وأكثرها حضارة، وأكبر الظن أنهم جاؤوا عن طريق البوسفور والدردنيل وبحر إيجة، أو عن طريق القفقاس، واستقروا في جنوبي البحر الأسود (آسيا الصغرى).

ثم تراهم يستقرون قرب منابع دجلة والفرات. ثم نشروا جيوشهم بعدئذٍ وبسطوا نفوذهم على سورية الغربية وأقلقوا بال مصر.

وكان، إلى شمال بلاد آشور، أمة مستقرة يعرفها الآشوريون باسم رارتو، ومن جاء بعدهم باسم الأرمن، وقد أضاع الأرمن ثرواتهم في الحروب الهجومية الكثيرة النفقات، وفي صد الآشوريين عن بلادهم.

وإلى شمال الأرمن، وعلى ضفاف البحر الأسود، كان يتحول السكونبوذيون، وهم عشائر حربية تتألف من خليط من المغول والأوربيين، إلى جبابرة متوحشين يركبون الجياد عارية، يحاربون ليعيشوا ويعيشون ليحاربوا، وقد أضعفوا آشور بغاراتهم الدائمة عليها، واجتاحوا غربي آسيا 630 – 610 ق.م وظهرت في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة في آسيا الصغرى ورثت بقايا الحضارة الحثية هي قوة الفريجيين، وقد ظل الفريجيون وقتاً ما ينازعون آشور ومصر السيادة على الشرق الأدنى".

وفي موضع آخر من الكتاب نفسه (ص 309) يقول ديورانت:

"ولكن الحقيقة أنه لا توجد سلالة صافية، ولم توجد قط ثقافة لم تتأثر بثقافة جيرانها أو ثقافة أعدائها، ومن واجبنا أن ننظر إلى هذه الرقعة الواسعة على أنها بيئة تدفقت على أجناسها المختلفة طوائف من هذا الجنس أو ذاك، فغلب عليها الجنس الهندوروبي تارة، وغلب عليها الآسيوي طوراً، ولكن غلبة هذا الجنس أو ذاك لم تثمر من الناحية الثقافية إلا اصطباغ الغالبين بالصفات الثقافية العامة لمجموع هذه الأجناس".

وأخيراً نوجز فنقول: "لقد أدى التمازج شبه المتواصل أو غير المنقطع، أو المتجدد باستمرار إلى نتيجتين هامتين:

الأولى: انصهار مجموعة من الأجناس والسلالات مع بعضها في بيئة محدودة هي بيئة الهلال الخصيب، ونشوء مجتمع خضع بشكل عفوي ودائم إلى عمليتي التفاعل الطبيعي (التفاعل العمودي مع البيئة الطبيعية) والتفاعل الاجتماعي أو التفاعل الأفقي (التكيف مع البيئة الاجتماعية) مما أكسبه مجموعة من الصفات والمزايا الثابتة، ووحدة في العادات والتقاليد، وفي الذهنية أو طريقة التفكير، وفي الطابع الحضاري العام، الأمر الذي جعله يتميز، بشكل واضح، عن غيره من المجتمعات حتى القريبة منه أو المجاورة.

الثانية: هي أن عملية الانصهار السلالي أو الدموي بين هذه الأجناس قد رافقها حكماً عملية رفد حضاري، كان لها أهميتها، وصنع الحضارة الجديدة التي ما تزال بقاياها تثير دهشة العلماء

والباحثين، وتنتزع إعجاب العالم بأسره بمجتمع يدين له العالم بأول وأهم أسس الحضارة. ومع ذلك فهو يعاني اليوم مما جره عليه تكرار الغزو الهمجي - بدءاً من الغزو الفرنجي والمغولي، وانتهاءً بالاحتلال العثماني والأوروبي والصهيوني- من تخلف وانحلال، بدا فيه وكأن يدا خفية ما انفكت تشده إلى مزيد من التشرذم والتحلل إلى عشائر وطوائف، وتكتلات عرقية أو إقليمية، بات الآن ينتظر الثورة المنقذة التي تعيده إلى وحدته وتلاحمه، ومن ثم إلى استئناف دوره الحضاري العتيد.

الباب الثالث

نشوء المجتمع السوري وتطوره

الباب الثالث
نشوء المجتمع السوري وتطوره

الاجتماع الراقي ونشوء المتحديات البسيطة

يقول سعادة[23] "إن الاجتماع البشري ينقسم إلى نوعين رئيسين: الاجتماع الابتدائي، ورابطته الاقتصادية الاجتماعية هي رابطة الدم.

والاجتماع الراقي، ورابطته الاقتصادية الاجتماعية مستمدة من حاجات الجماعة الحيوية للارتقاء والتقدم، بصرف النظر عن الدم ونوع السلالة.

وفي الاجتماع الثاني تقع الشعوب التي أخذت بأسباب الحضارة وأنشأت الثقافة".

ولا شك في أن بيئة الهلال الخصيب قد استقبلت، كما أسلفنا في فصل "التمازج السلالي"، العديد من الجماعات التي تنتمي إلى ذلك النوع الثاني بالتأكيد.

---

[23] نشوء الأمم ص 58.

حيث استقر معظمها بعد أن توقف عن الترحال، إذ وجد أن أسباب سد الحاجة متوفرة في بلاد نباتها كثير، وماؤها وفير، ومناخها معتدل.

وقد أثبتت الحفريات الأثرية، بشكل قاطع، تواجد الإنسان منذ أقدم أطواره الأولى. وبالاستدلال العقلي، إضافة إلى ما تنطق به هذه الآثار، يمكننا التأكيد بأم تلك الجماعات قد تفاعلت مع بعضها، ومع البيئة الطبيعية وتطورت..

وإذا كنا نجهل معلومات تفصيلية عن تسمياتها وحياتها اليومية، لعدم وجود كتابة، إلا أن ما خلفته من أدوات حجرية وفخارية، ومن مدافن، ودلالات عبادة، قد قدم الدليل على أن تلك الأقوام تميزت بأنها:

- كانت من النوع المتطور والقابل للارتقاء.
- ومن النوع النشيط القادر على التكييف بذكاء.
- ومن النوع المتميز باستعداده أو نزوعه الاجتماعي، وميله إلى الابتكار والتجديد.

إن ما أنجزته الاكتشافات الأثرية في سورية، تؤكد هذه الحقيقة بالشواهد الحسية على الرغم من أنها ما تزال في بداياتها، ومن أن آلاف التلال والمواقع الأثرية ما تزال تنتظر من يظهر كنوزها ومكنوناتها الحضارية.

وأن المحاولات التي يبذلها بعض المؤرخين من أجل عزل بعض أجزاء سورية عن بعضها الآخر منذ بدايات تشكّلِ الوطن

السوري، تبوء اليوم جميعها بالفشل، والتسميات التي تطلق على حضارات العصور حسب مناطق اكتشافها لم تعد تحمل معنى السمات الحضارية الخاصة بتلك المناطق، بل أصبحت، بعد وضوح التشابه الأكيد بين آثار كافة المواقع، تعني الحضارة السورية في العصر الذي وجد فيه كل من تلك المواقع المكتشفة.

لقد تأكد للباحثين، نتيجة للمكتشفات الأثرية، أن أقدم آثار لوجود الإنسان في الجزء الشرقي من الوطن السوري يعود إلى نحو 120 ألف عام، وفي الجزء الغربي منه إلى نحو 150 ألف عام.

ولقد كشف الدكتور سوليكي عام 1951م أقدم هياكل عظمية بشرية ترقى إلى 100 ألف عام، وتعود إلى إنسان العصر الحجري القديم من نوع نياندرتال.

ثم بدأ العصر الحجري الوسيط نحو 10 آلاف ق. م. وأعقبه العصر الحجري الحديث نحو 7 آلاف ق. م.

لقد بدأ العصر الحجري الحديث بزراعة الأرض وتدجين الحيوانات، وانتهى بظهور المعادن. وبدأ العصر الحجري - النحاسي، ثم تبعه البرونزي نحو 3500 ق. م.

وإن إنسان سورية القديم قد سبق غيره من سكان المناطق المجاورة في الانتقال إلى العصر الحجري الوسيط بما يقرب من سبعة آلاف سنة.

وفي الوقت الذي كان فيه إنسان المناطق الأخرى ما يزال يعيش في الكهوف، ويقتات بما تقدمه له الطبيعة من ثمار ونباتات

وصيد.. "ظهرت للوجود في حوالي 10 آلاف ق.م، في غربي بلاد الشام، حضارة يطلق عليها اسم الحضارة النطوفية دامت حتى حوالي 3800 ق.م. وهي تتمتع بأهمية كبيرة بالقياس لموضوع الخروج من الكهوف"[24].

أما العصر الحجري الحديث فقد بدأه إنسان سورية منذ 7000 سنة ق.م. وهذا أقدم من أي مكان آخر في العالم، بل وإن إنسان منطقة الفرات بدأه منذ 9000 سنة ق. م. حيث اكتشفت أقدم قرى زراعية في العالم حتى الآن.

وما بين العصر الحجري الحديث وبدء التاريخ، توجد مرحلة انتقالية اكتشفت بعض آثارها في حوض الفرات الأدنى ومنها منطقة سومر.

عصر الحضارة النطوفية

جاءت هذه التسمية نسبة إلى الموقع الذي اكتشفت فيه آثار وادي نطوف في جنوبي الجناح الغربي من الوطن السوري فلسطين التي تعود إلى حوالي 10000 ق. م. وهي آثار لها أهميتها الكبيرة بالقياس لموضوع الخروج من الكهوف. وتظهر فيها الأدوات الصوانية ذات الأشكال الهندسية، وأدوات مثل نصل المنجل، والمكشط والمنقش، والمخرز، والمثقب المسنن. هذا إلى جانب مجموعة متكاملة الخصائص تشمل صناعة الأدوات المترلية لأغراض

[24] الدكتور جاك كوفان "الوحدة الحضارية في بلاد الشام" ص: 19- د. احمد داود "تاريخ سورية القديم" ص: 164.

الجرش أو الطحن أو السحق، وصناعة الأدوات العظمية، وأعمال فنية مصنوعة من الحجر أو من العظم، وقطع مختلفة لأدوات الزينة، أو الحلي المصنوعة من الحجر والعظم والصدف، إضافة إلى بقايا معمارية من أكواخ مستديرة وصوامع للخزن، ثم المدافن الفردية أو الجماعية.

ولقد جاء اكتشاف آثار مماثلة لما اكتشف في وادي نطوف في مواقع عديدة في مختلف أرجاء الوطن السوري، مؤكداً لحقيقة الوحدة الحضارية السورية، على عكس ما حاوله البعض من إعطاء ميزات خاصة للحضارة النطوفية.

وقد دحض هذه الخصوصية الدكتور جاك كوفان أستاذ آثار ما قبل التاريخ في جامعة ليون، معتمداً على مكتشفاته، فأكد في كتابه "الوحدة الحضارية في بلاد الشام" قائلاً:

"إن وجهة النظر هذه تضعضعت أمام سيل الاكتشافات الأخيرة في كل من سورية ولبنان حيث تم العثور، إلى جانب تلك الأدوات أيضاً، على أدوات للسحق والطحن في موقع الطيبة بحوران[25]، وفي سعيدة، وجعيتا بلبنان، وفي وادي الفرات. يضاف إلى ذلك ما وجدناه في موقعي أبي هريرة[26] والمريبط[27] على الفرات الأوسط من مساكن، ومن أدوات مصنوعة من

[25] د. أحمد داود "تاريخ سورية القديم" ص: 48.

[26] الشواهد المتماثلة المكتشفة في بلاد الشام كلها تمثل نموذجاً حضارياً أطلق عليه اسم الكيباريان الهندسي - المرحلة ب.

[27] جاك كوفان - "الوحدة الحضارية لبلاد الشام" ص: 20 -21

العظام، إلى جانب أدوات مشهورة من قبل، وكانت مألوفة في الحقبة النطوفية، مثل الأدوات المزدوجة الرأس، وفقرات الأصابع المثقوبة. وبذلك بدأ التاريخ يسجل بعض الأدلة على قيام تطور مشابه جداً للحضارة النطوفية في كل من فلسطين ومنطقة الفرات في أعقاب مرور مشترك بمرحلة الكيباريان. كذلك تأكدت الآن النظرية التي طرحها كل من أور وكوبلاند وأورنش، والقائلة بأن بوتقة حضارية واحدة امتدت، خلال هذه الحقبة، من حدود وادي النيل إلى الفرات، بصرف النظر عن الخصائص الفردية التي جعلت للحضارة النطوفية بعض سمات إقليمية متميزة".

إن هذه الحقيقة التي تثبتها الشواهد الأثرية المكتشفة من شأنها أن تجعلنا نستقرئ ما يلي:

- إن الحضارة النطوفية تشير إلى الطابع الحضاري والمجتمعي لسورية كلها في ذلك العصر الذي ظهرت فيه حضارة وادي نطوف.
- إن الحضارة السورية، في عصر ما قبل التاريخ، جاءت نتيجة تفاعل بيئي طويل الأمد، استغرق آلاف السنين، بدءاً من استقرار الإنسان السوري في أحواض المياه.
- إن البيئة السورية التي احتوت ذلك التفاعل منذ الألف العاشر ق. م. هي البيئة الممتدة من ضفاف الخليج العربي، مروراً بحوضي دجلة والفرات، إلى سورية الغربية، وحتى حدود وادي النيل.

ولقد دحضت الاكتشافات الأثرية، كما أشرنا قبل قليل، كل محاولات بعض الباحثين الرامية إلى تجزئة هذه المنطقة حضارياً وسكانياً.

إذا كان التماثل الكبير في نوعية الآثار المكتشفة دليل وحدة حضارية، فلا ريب أن هذه الوحدة الحضارية قد أوجدها قيام تواصل مستمر بين مختلف المتحدات السكانية وذلك التواصل الذي لم يكن له إلا أن يتم في البيئة الواحدة المحددة بحدود طبيعية تجري ضمنها دورة الحياة الكاملة التي من شأنها أن توجد وسيلة للتفاهم، وأسباباً للتعارف أو للتخاصم الذي ينتهي بخضوع أحد الأطراف، أو بالتصالح، مما ينتج عنه، في كل الأحوال، تكوّن المتحدات البسيطة التي تبدأ بالقرية، فالمتحدات المركبة التي تتكون من مجموعة متحدات بسيطة سيقودها التطور فيما بعد إلى تكوّن المتحد الأتم.

في الفترة الممتدة بين الألفين الثامن والسادس ق. م. ظهرت مجموعة كبيرة من القرى الكبيرة في جميع مناطق سورية من الشرق إلى الغرب، ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، نذكر منها ما اكتشف في المواقع التالية:

تل أسود على البليخ، والمريبط وابا هريرة وبقرص على الفرات، والكوم في جنوب شرقي أبي هريرة، ورأس شمرة ووادي فلاح وفاره وأبو غوش على الساحل، والبوة والعريقة وأسود وبيسمون والشيخ علي والمنحطة وأريحا والبيضة في سورية الجنوبية، والرماد جنوب دمشق.

ولقد تبين أن القسم الأعظم من البقايا الحيوانية في موقع أبي هريرة هي عظام الماعز والغنم، أي من الحيوانات التي كان يربيها الإنسان، وأن أهالي ذلك الموقع كانوا مزارعين، كما تبين أن الأهالي في تل الرماد كانوا يزرعون الحبوب كالقمح والشعير، والحُمَّص، والعدس، والفول.

واستناداً إلى الدلائل المعمارية نستطيع التقرير بأن درجة من درجات التنظيم الاجتماعي أتاحت للجماعات البشرية المستقرة، كما في الألف الثامن ق. م.، أن تتكاثر، وينمو عددها؛ فالنظام المتراص للمساكن، على طول الشوارع في أبي هريرة، والرماد، دليل على ترابط المتحد السكاني للقرية، كذلك فإن وجود مجارٍ وقنوات للمياه في بقرص يمكن أن يفترض وجود توزيع منظم للمياه، وهو وجه من وجوه التنظيم الاجتماعي البلدي الذي يرى فيه تشايلد نقطة الانطلاق نحو التمدن.

"إن وجود أي نظام للري والاسقاء يكفي للتكهن، دون الابتعاد عن المجال الزراعي، بوجود مؤسسة اجتماعية متكاملة القرارات وتسهر على تنفيذها[28]".

ومن الأدلة الواضحة على وحدة التكون النفسي الجماعي، والتصور الديني في المناطق السورية عموماً في تلك الأزمنة الموغلة

[28] جاك كوفان- "الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألف التاسع والثامن ق.م"، ص: (107 - 108). أحمد داود "تاريخ سورية". ص: 152.

في القدم، ظهور تماثيل الربة عشتار بمختلف أسمائها التي تنضوي جميعاً تحت اسم "الأم الكبرى" في تلك المواقع جميعاً.

يقول الدكتور جاك كوفان بهذا الصدد: "إن تشكيل أو نحت تلك الأعمال الفنية لم يكن هدفاً لذاته، كما لم يكن ضرباً من اللهو العبث، ولا ضرباً من ضروب الفنون بالمعنى الحديث للكلمة، فالشكل البشري، وخاصة المرأة، لم يجر تشخيصه فنياً إلا لأنه يحمل مغزى، ونابع من تصميم مسبق".

ومما يؤكد هذه الدلالة أن التماثيل المنفذة بأسلوب بسيط أو مجرد تقريباً، لا تحاكي الواقع إلا من بعد عرض أشكال من كتاب داود ولغز عشتار.

من ناحية ثانية نجد في هذا الأسلوب الموحد برهاناً على إجماع عام، أنه تعبير مشترك كأي تعبير آخر. ولهذا نستطيع التأكيد بأن الأمر يتعلق بتشخيص المرأة بقدر ما هو متعلق بالتعبير، من خلال شكل المرأة، عن النفسية الجماعية لعصر بكامله.

وفي الفترة التي عمّت فيها الزراعة بكل نتائجها التي أشار إليها فلانري، والتي تجلت في امتلاك الأرض، وانتقال الملكية بالوراثة من شخص إلى آخر، نجد للحضارة غير المادية لتلك الفترة آثاراً ملموسة[29] كما يذكر الدكتور كوفان: "إنه بظهور الاستقرار في العصر النطوفي، ظهرت القرية. وكلاهما كان السبب

[29] نفس المصدر (جاك كوفان) ص: (169 – 170). أحمد داود. ص: 153.

في نشوء تحولات لا يمكن لغيرهما أن يحققها. وقد تجلت تلك التحولات في البلوغ بالسكن إلى الكمال، وفي قيام شكل جديد من أشكال الفعالية البشرية وهو ممارسة الإنسان للزراعة لأول مرة".

ولقد توصل الأثريون من خلال تنقيباتهم في بعض المدن القديمة مثل أريحا، وبيت شان، ومجدد، وجازر، إلى إرجاع تاريخ هذه المدن إلى فترات زمنية موغلة في القدم، فارجعوا أريحا إلى ما قبل سبعة آلاف سنة ق. م. "وهذا ما حمل بعضهم على اعتبارها أقدم مدينة في العالم ما تزال باقية حتى الآن" وقد عثر في حفائر تليلات غسول الواقعة شمالي شرق البحر الميت 1929م وما بعدها، على آثار، أقدم مدينة في فلسطين، أي أقدم من أريحا وجازر، كان لها حضارة راقية. وقد ضربت في أوائل العهد الحجري – المعدني أو البرونزي 5000 ق.م –3000 ق.م نتيجة حريق حوّلها إلى رماد.

فالمنطقة السورية إذاً عامرة بالمدن الحضارية منذ الألف السابع ق. م. على الأقل، وتنتشر على طول الساحة السورية الممتدة من ضفاف الخليج (البحر الأدنى) إلى شاطئ المتوسط (البحر الأعلى) حضارة واحدة من عمر واحد.

أما حضارة فجر التاريخ فنجدها في مجموعة من العصور التاريخية التي أعطت أيضاً أسماء المواقع المكتشفة فيها، ويدرسها بعض الدارسين بمعزل عن سواها من بقاع المنطقة، بينما تقضي

الروح العلمية الموضوعية أن تدرس دراسة مقارنة جدية مع بعضها، ضمن إطار البيئة الواحدة للوطن السوري كله. لأنه من غير المعقول أن تنشأ وتتطور أية حضارة من هذه الحضارات في معزل عن محيطها الطبيعي. وهذه العصور هي:

1- عصر تل حسونة - سامرا

2- عصر تل حلف

3- عصر تل العبيد

● **عصر تل حسونة**

يقع تل حسونة على مسافة 36 كم جنوب المَوصل. وقد نقب فيه (1943 - 1944) ووجدت أرضيات أكواخ لفلاحي العصر الحجري الحديث، وبيوت سكنية شبيهة جداً ببيوت شمالي العراق الحالية، مصنوعة من الطوب، ومفروشة أرضها بالطين المجبول مع التبن، تحوي كل منها خوابي للحبوب مغروسة في أرض البيت، كما تحوي (التنور) للخبز، والجرن لدق الحبوب أو قشرها، إضافة إلى مناجل صوانية، ومعاول حجرية، وتماثيل بدائية الصنع وجرار وضعت فيها عظام أطفال، ومعها بعض الأوعية التي يعبّرون بها عن نظرهم أو معتقداتهم حول مصير الإنسان بعد الموت، بينما وجدت عظام الكبار مدفونة في زوايا البيت.

وإن أنواع الفخار المنقولة من شمال سورية تمثل مرحلة حضارية واحدة تمتد من البحر الميت حتى نهر

دجلـــة. وإن دراســـة الـــبقايا العظمية قد بينت نوعاً واحداً من البشر في كل الهلال الخصيب.

وفي الطبقات العليا، وجد نوع من الفخار المدهون وعليه صور، وهذا النوع تشتهر به منطقة الجزيرة العليا، في الشمال الشرقي من سورية.

● **عصر تل حلف**

يقع تل حلف قرب رأس العين على الخابور، وفيه نجد أن البيوت بقيت أيضاً من الطوب، ولكن لأول مرة يظهر القرميد، والمقابر، وأدوات الزينة، والأختام المسطحة، وتماثيل من الفخار.

وفخار تل حلف من نوعية جيدة جداً بلغت درجة من الكمال لم يزد عليها من بعد، فجدران الجرار رقيقة، وأشكالها متعددة ومزخرفة، وتلوينها ممتاز، وعليها رسوم للزهور، والطيور، والحيوانات، ورؤوس الثيران. وهذا النوع من الفخار منتشر من كيليكيا في أقصى الشمال الغربي وحتى سفوح زاغروس أو حدود إيران .

● **عصر تل العبيد**

في الجنوب الشرقي قرب أور، وحضارته معاصرة لحضارة تل حلف. وفخار تل العبيد من نوعية جيدة، ودهانه غير لامع، وعليه رسوم لبعض الطيور. استعمل من عصر تل العبيد مصنوع من الطين والقصب. وكانت المعابد أهم الأبنية في قرى ذلك العصر.

والبيوت تنمو حول المعبد وليس حول القصر. ومرحلة تل العبيد هي بدء الحضارة السومرية.

الثقافة العمرانية

يوضح "سعادة" الفرق بين الثقافة الأولية والثقافة العمرانية: "... فالثقافة الأولية تقتصر على إقامة النسل، والسعي وراء الرزق بالمعنى الحرفي وهما أمران ينتج عنهما نظام اجتماع أولي محدود كما هو الحال في خصائص المجتمع البدوي.

أما الثقافة العمرانية فتقوم على: إقامة النسل، تحصيل الرزق واستدراك موارده، التنظيم الاجتماعي الاقتصادي. ثلاثة أمور تتوج الحياة العقلية المشتملة على المنطق والأخلاق وسلامة الذوق. وهي هذه الحياة التي ابتدأها بعض الشعوب الراقية، ووضع السوريون أساسها الراسخ مما يعطي المجتمع قيمته ومزاياه، والمدينة الحديثة أبرز صفاتها وأثمن كنوزها[30]".

ويرى سعادة[31]: "أن الزراعة هي أساس الثقافة العمرانية... ولكن الزراعة ليست نوعاً واحداً بل أنواعاً، والثقافة العمرانية المؤسسة عليها هي مراتب:

1- ثقافة المعزق = زراعة المعزق.

2- أ- ثقافة المحراث - زراعة المحراث.

---

(30) "نشوء الأمم". ص: 58.

(31) "نشوء الأمم". ص: 70.

ب- ثقافة البستان = زراعة البستان.

3- ثقافة الإنتاج التجاري = زراعة المحاصيل، وإنشاء الصناعات وإعداد الحاجيات والكماليات.

والمرتبتان الأوليتان أفراديتان وعائليتان، ترميان في الدرجة الأولى إلى كفاية الفرد والعائلة، ولكنهما تستدعيان اهتمام الفرد والعائلة الدائم".

ومن أجل إلقاء الضوء على الفرق بين ثقافتي المرتبتين: الأولى (ثقافة المعزق) والثانية (ثقافة المحراث وثقافة البستان) يوضح سعادة الفرق بين زراعتي المرتبتين[32]:

"... زراعة المرتبة الأولى أولية تقتصر على قلب سطح الأرض بمعزق بشكل عصا محددة، وتغيير مكان الزرع كل مرة، وهي لا تعطي إلا الضروري، ولا تسمح، في أرقى درجاتها، بالانصراف إليها أو التعويل عليها بعمران وكثافة سكان مدينة كما هي الحال في السودان حيث الأرض رخوة، وحيث يؤدي إهمال تسميدها إلى فقرها ويدعو إلى طلب التعويض بالمساحة.

والمرتبة الثانية هي التي بلغتها الشعوب الراقية منذ أقدم عصورها المعروفة، وهي المرتبة التي بلغتها سورية لتحاول، بعدها، الخروج إلى المرتبة الثالثة، وهي أساس المرتبة الأخيرة.

---

[32] نفس المصدر. دلابلاش ص: (7 -58).

ففي جنوب شرقي الهلال الخصيب، كان أساس هذه الثقافة هو تربة الأرض التي أخصبها فيضان النهرين السنوي، وهو الفيضان الناشئ عن سقوط الأمطار الشتوية. وكان هذا الفيضان ضاراً ونافعاً، فقد هدى السومريين إلى أن يجروا ماءه جريانا أميناً في قنوات للري تخترق البلاد طولاً، وقد خلدوا فيما بعد أخطاره الأولى بالقصص التي تتحدث عن فيضان عظيم طغى على الأرض ثم انحسر آخر الأمر ونجا الناس من شره[33]. وكان نظام الري المحكم الذي يرجع عهده إلى 4000 سنة قبل الميلاد من أعظم الأعمال الإنشائية في الحضارة السورية. وما من شك في أنه كان أيضاً الأساس الذي قامت عليه. فقد أخرجت الحقول التي عنوا بريّها وزرعها محصولات موفورة من الذرة والشعير والقمح، ومن البلح والخضر الكثيرة المختلفة الأنواع. وظهر عندهم المحراث من أقدم العصور تجره الثيران، وكان يتصل أو يعلق به كيس جلدي في أسفله أنبوبة ضيقة تسمح بتساقط البذار حبة حبة. وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب ركبت فيها أسنان من الظرّان (الصوان) تفتت القش ليكون علفاً للماشية، ويفصل منه الحب ليكون طعاماً للناس[34]. فإذا انتقلنا إلى القسم الغربي من الهلال الخصيب، إلى منطقة استقرار الكنعانيين، وجدنا أن أقدم أعمال الكنعانيين الرئيسة انحصرت في ميادين الزراعة، وصيد

(33) "قصة الحضارة" (23) فهرس الجزء الأول.
(34) "قصة الحضارة" (24) فهرس الجزء الأول.

الأسماك، والتجارة، فالاهتمام بالزراعة انعكس على طقوسهم الدينية، وأثر فيها تأثيراً عميقاً.

كان البذر يتم باليد أول الأمر، ثم تطور بعد استخدام المحراث البابلي. وقد وجدت بقايا الأعمال الزراعية الكنعانية التي تعود إلى ما بين 1500-1300 ق.م. في تل مرسيم، واكتشفت فأس من البرونز في رأس الشمرة. وفي حوالي 1000 ق.م. استخدم المنجل الحديدي في الحصاد، بدل المنجل الصواني المسنن، وإلى التاريخ نفسه تقريباً تعود آلة حديدية أخرى هي طرف محراث اكتشفت في فلسطين الوسطى في جبعة وتسمى اليوم تل الغول. وعملية الدرس كانت تتم بزلاجة خشبية في أسفلها حجارة صغيرة. وكانت تذرى الحبوب بمذراه خشبية كبيرة. والطحين كان يحصل عليه بوساطة مطاحن يدوية من الحجر. والخبز بوساطة أفران أسطوانية من الطين المشوي (يعرف واحدها بالتنور).

ولم تختلف الصورة العامة اختلافاً كبيراً عن العادات الريفية حتى أمد قريب جداً، كما أن المحاصيل نفسها لم تختلف كثيراً عنها محاصيل هذه الأيام.

وكانت هناك طبقة من الفلاحين والمستأجرين تسمى خابشي تقابل طبقة المشكينو في بابل.

وفي الريف الجبلي، عمد السكان إلى تحويل منحدرات الجبال إلى سطوح متفاوتة الارتفاع أو مدرجة وكانت أكثر ملاءمة للحدائق والكروم منها للزراعة الحقلية الواسعة. وأقدم الإشارات

إلى هذه المدرجات التي تتصف بها مشاهد الجبال الساحلية حتى اليوم، وردت في كتابة أثرية تعود إلى عهد حملة تحوتمس الثالث على سورية.

وهكذا نرى أن المجتمع السوري كان من أقدم المجتمعات التي قامت فيها ثقافة عمرانية أعطت المجتمع قيمته ومزاياه. وذلك بدءاً من المرتبة الزراعية الأولى التي كانت الأساس الذي ارتكزت عليه المرتبة الزراعية الثانية.

ثقافة المرتبة الزراعية الثانية والإنتاج الزراعي

يقول سعادة: "... ولا نرى للعقل منفذاً إلى الحياة الفكرية والعلمية إلا مع المرتبة الثانية هذه". في هذه المرتبة نجد الزراعة الحضرية بمعناها الصحيح. ومع أن نظامها، بالأكثر، فردي وعائلي بحيث يقصد منها تموين العائلة، وبيع ما يفيض عن المؤونة لشراء الحاجات بثمنه، فهي تعلو كثيراً عن الزراعة المعزقية؛ إنها أفضل لغرض الخزن. والخزن والهري فارق أساسي للزراعة بمعناها العمراني عن الزراعة الأولية "والزراعة كانت أسلوب العيش الوحيد الذي مكن الناس، منذ البدء، أن يحيوا معاً في مكان معين، وأن يحشدوا فيه مقومات الحياة" هكذا يقول دلابلاش[35] ويزيد: "ليس زارعاً الذي يحرق العشب وينثر مكانه ببضع حفنات من البذور ثم يرحل عن المكان، بل الذي يحصد الغلال ويخزنها هو الزارع".

---

[35] "نشوء الأمم" – دلابلاش. ص: 64.

"إن زراعة البستان التي نشأت عن الزراعة الأولى يمكن حسابها في عداد المرتبة الثانية. وهي نوع راقٍ من سد الحاجة إلى درجة غنية بالغذاء والحاجيات البيئية. وهذه الزراعة بيئية قبل كل شيء وبعد كل شيء، ولا يمكن أن تتقدم أكثر من هذا المدى.

وهذان النوعان: زراعة المحراث، وزراعة البستان، قد حررا العقل إلى درجة ما، وأوجبا ارتقاء توزيع العمل. ولكنهما لم يفسحا للعقل والتنظيم العملي، كل المجال الذي يسمح لهما بالتقدم".

ويقول سعادة أيضاً "تأتي أخيراً المرتبة الثالثة: ثقافة الإنتاج التجاري، وهي الثقافة القائمة على زراعة المحاصيل الكبيرة، وإنشاء الصناعات الكبرى".

ثم يضيف: "ترقت الزراعة كثيراً في هذه المرتبة فازدادت العناية بالتسميد. وكان من وراء اتساع هذه الزراعة وتحسينها أن حاصلها كثر إلى درجة صار فيها قسم كبير من أهل هذه الثقافة محرراً من الحاجة إلى زرع وحصد قوته بنفسه. واصبح بالإمكان الاهتمام بالشؤون الثقافية الأخرى، والانصراف إليها، فنشأ، عن ذلك، التخصصُ الراقي الذي هو أبرز ميزة في حياة المجتمع المتمدن الاجتماعية، وأرقى مرتبة من مراتب الاقتصاد الاجتماعي، وأفعل أسلوب للحصول على أكبر نتيجة من مبدأ التعاون".

عصر بداية التاريخ وتطور الثقافة العمرانية

نرى أن نبدأ هذا البحث بالعودة إلى الاكتشافات الأثرية نستنطقها ونستقرئ من خلالها أحوال المجتمع السوري في تدرجه المتطور من مرحلة العشيرة إلى مرحلة القرية التي هي بداية العمران، ثم إلى المدينة، ومواكبة ذلك التدرج لتقدم الزراعة والخزن، وتقدم أو توسع التبادل التجاري، وتزايد القدرة على الابتكار في المجالات العقلية والصناعية.

ففي عصري أوروك 3000 - 3100 ق.م وجمدة نصر 3100 - 2800 ق.م، تطورت الحضارة في الجنوب الشرقي من الهلال الخصيب (منطقة سومر) تطوراً كبيراً، فتوسعت القرى حول المعابد، وظهر التنظيم والسلطة الإدارية التي تمكنت من حفر الأقنية للري وزيادة الإنتاج الزراعي. كما ظهرت الصناعات، ودولاب الخزف، والختم الأسطواني، واخترعت الكتابة قبل الألف الثالث قبل الميلاد.

1- عصر اوروك

تقع اوروك (الورقاء) ما بين بغداد والبصرة، وفي وسطها زقورة من الطين حيث يوجد معبد أنانا وعشتار، وقد كشفها المنقبون الألمان 1928م. وقد تبين أنه، في عصر اوروك، حلت الأختام الأسطوانية مكان المسطحة، وكانت تصنع من الحجارة الكريمة بطول 3 - 8 سم، وقد نقش عليها ما يمكن طبعه على ألواح الطين كالنباتات والحيوانات والرموز الدينية.

وفي هذا العصر اخترع الدولاب، ووجدت الفسيفساء، كما وجدت أول كتابة تصويرية، وهي الكتابة التي تطورت مع الزمن إلى الكتابة المسمارية.

2- عصر جمدة نصر

هو امتداد لعصر حضارة اوروك بالنسبة لموضوع الصور والأختام، إلا أن الكتابة أصبحت أكثر انتشاراً، وأصبحت تعبر عن أصوات.

وكان الدولاب والمحراث قد اخترعا سلفاً، ولكن هذه المرة ظهر فن النحت، وبسرعة بلغ درجة عالية لإبراز عدة مظاهر من الحياة.

ويبدو أن الكتابة التصويرية السومرية قد سبقت مثيلتها المصرية[36]، لكن هذا التقدم لم يقتصر على منطقة سومر بل شمل بالتدريج كل أرجاء سورية الطبيعية. وإن كان انتشاره لا يمكن أن يحدث دفعة واحدة أو بسرعة، فالحضارة لا تنشأ بصورة قفزات من حالة إلى حالة، وكما أنها ليست عملاً فردياً أو مقتصراً على ما تبتكره مجموعة من الأفراد، بل هي، بدهياً، إنجاز مجتمعي ينشأ مع الزمن بالتفاعل بين الجماعات أو المتحدات الاجتماعية ضمن البيئة.

وإذا كانت الزراعة، في حد ذاتها، عملاً انقلابياً بالنسبة لتقدم الإنسان، ففي وسعنا القول بأن منطقة سورية الطبيعية كلها (من

---

[36] أنظر: هنري فرانكفورت "فجر الحضارة في الشرق الأدنى". ص: 104 ــ 136. ويل ديورانت " قصة الحضارة" ج: 1 - ص 182.

البحر الأدنى إلى البحر الأعلى) كانت تسير في هذا المضمار على درجة واحدة من التطور تقريباً، ومعها تسير مظاهر توسع العلاقات الاجتماعية بين المتحدات ورقيها.

والأمر نفسه يقال عن الكتابة بصفتها ثورة في الحياة كلها، فقد عمّت هي الأخرى كل أرجاء الوطن السوري، وهذا ما أثبتته عمليات التنقيب التي ما تزال في بدايتها.

لقد كانت إحدى النتائج الهامة لزيادة الإنتاج الزراعي والتجاري أو بمعنى آخر لتوفر الأمن الغذائي، تحرر العقل بشكل أتيح له فيه الوقت الكافي للإبداع والابتكار الذي تجلى بأرقى أشكاله في تطور الكتابة لتغدو أكثر قدرة على التعبير، وانتشار الخبرات، والمعارف، ووسائل التفهم بين الناس، وانتقالها بالتالي إلى الأجيال لتتوارثها وتعمل بدورها على تطويرها. فقد تطورت الكتابة التصويرية إلى المقطعية الصوتية، وظلت تتطور حتى بلغت مرحلة الأبجدية التي كان لكنعانيي الساحل شرف السبق إلى ابتكارها ونشرها في العالم.

وإن نظرة شاملة إلى الوطن السوري القديم من شرقي الخليج، أو من سفوح زاغروس، مروراً بالفرات، وحتى مرسين في الشمال الغربي، وبلبنان وفلسطين، إلى جنوبي سيناء، ترينا كيف أن هذه البقعة الحضارية كانت تسير بصورة متواكبة تقريباً. الأمر الذي لا يمكن له أن يحدث إلا عبر ذلك التواصل الاجتماعي المستمر بين جميع المتحدات الاجتماعية، بدءاً من أبسطها وحتى أكثرها تمدناً

وتوسعاً وغنى. أجل... إذا كانت الكتابة التصويرية قد وجدت لأول مرة على أيدي السوريين من سومر، فإن شكلاً آخر موازياً لها، إن لم يكن قد سبقها في الظهور، من أشكال التعبير في الكتابة كان قد ظهر لدى التجار السوريين الفينيقيين، وقد اكتشفها فلندرز بتري على قطع الفخار وآنيته في سورية ومصر وإسبانيا، ولقد حدد عمرها بسبعة آلاف عام.

يقول ويل ديورانت[37] "... وهذه الرموز الكتابية التي وجدت في حوض البحر المتوسط تبلغ ما يقرب من ثلاثمئة رمز معظمها متشابه في جميع الأرجاء، مما يدل على علاقات تجارية قامت بين طرفي البحر الأبيض المتوسط في عهد يرجع في التاريخ إلى سنة 5000 قبل الميلاد. ولم تكن الرموز صوراً، بل كان معظمها علامات تجارية، علامات تدل على الملكية والكمية وغير ذلك من معلومات يقتضيها التبادل التجاري. ولم تكن العلامات حروفاً، لأن العلامة الواحدة كانت كلمة كاملة، أو فكرة بأسرها، ومع ذلك فمعظمها كان شديد الشبه بأحرف الهجاء الفينيقية".

ويستنتج فلندرز بتري من ذلك أن مجموعة كبيرة من الرموز قد استخدمت شيئاً فشيئاً في العصور الأولى لأغراض شتى. وقد وضع نظرية مبنية على أساس هذا الاكتشاف مفادها أن العلامات الرمزية إنما هي اصل الأبجدية الفينيقية الأولى في العالم.

---

[37] "قصة الحضارة" ج:1 ص: 182.

وليس الموضوع هنا أيهما أسبق، بل هو الإشارة إلى المسيرة الحضارية المتوازية لشعب شغل هذه الأرض منذ آلاف السنين[38].

إن اختراع الكتابة في سومر حقيقة مؤكدة، كما انه مؤكد أيضاً انه قد عثر على أول كتابة في العالم في كل من ماري، وايبلا، وحلبو، وأوغاريت، وصور، وصيدا، وجبيل، وسيناء، ذلك أن كلاً منها لم تكن لتقل في سعيها الحضاري عن شقيقاتها. وإذا كانت أول كتابة تصويرية ومقطعية قد وجدت في سومر، فإن أول تطوير لهذه الكتابة، من المقطع إلى الحرف، أي إلى اختراع أبجدية مبسطة قدمت للعالم بأسره، إنما جاء على أيدي الفينيقيين في أوغاريت وجبيل.

في أوغاريت ابتكرت أول أبجدية صوتية، وقد كتبت بالخط المسماري، وفي جبيل تم التوصل، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إلى تطوير تلك الكتابة، وكتابتها بالعلامات الأبجدية الفينيقية المعروفة والخالدة، التي أصبحت أم الأبجديات المستعملة في العالم كله.

وإن اختراع الأبجدية كان، في حد ذاته، ثورة ما يزال العالم كله يدين بها للعقل السوري.

عصر المعدن

أخذ الناس في سورية، ومنها فلسطين، يستعملون المعدن بشكل واسع منذ حوالي 4000 ق.م ولكنه لم يأخذ مكان

[38] د. أحمد داود. "تاريخ سورية القديم". ص: 174.

الحجارة كمادة رئيسة لصنع الأدوات والأسلحة حتى بعد 3000 ق.م. ويمكن تسمية هذا الألف الرابع بالعصر النحاسي الحجري الذي تكثر آثار حضارته في أوغاريت، وسائر المواقع شمالي سورية وفي تليلات الغسول وسائر المراكز في فلسطين. وفي حوالي 3000 ق.م، يبدأ العصر النحاسي.

ومما كتبه الدكتور فيليب حتي حول هذا العصر[39]:

"وتظل سورية الشمالية في العصر النحاسي - الحجري، كما في العصر الحديث، المركز الحضاري الرئيس للشرق الأدنى بأسره، وقد أصبح الإنسان، بعد اكتشاف المعدن وإدراك خواصه، على عتبة عصر جديد استمر حتى الأزمنة الحديثة".

وأتى البرونز بعد النحاس، ثم تبعه الحديد. وصادف بدء عصر البرونز اختراع الأبجدية، وهكذا تبدأ حضارة عصر التاريخ.

"وانتشرت معرفة النحاس من سورية إلى جميع الجهات، ويمكن أن تكون منطقة نينوى قد اكتسبت هذه المعرفة من جارتها في الغرب، وهكذا فإن الجسر السوري الذي يمتد فوق المنطقة الواقعة بين خليج اسكندرون ومنحنى الفرات يبرز في أهميته كمسرح لتدجين القمح، واختراع الخزف، واكتشاف المعدن".

"وقد أتت من تل الجديدة في شمالي سورية مجموعة مختزنة من التماثيل النحاسية الصغيرة المصبوبة، وبينها إله

[39] "تاريخ سورية ولبنان وفلسطين" ج: 1 ص: 24 - 25.

وإلهـــة للخصـــب، يعـــتقد أنهـــا أول تمثـــيل معروف للشكل البشري بوساطة المعدن[40]".

"وقد ادى نمو صنع المعادن والخزف الذي يتصف به أواخر العصر النحاسي - الحجري، وأوائل العصر النحاسي، إلى ظهور حِرَفٍ مختلفة، وزيادة في العلاقات التجارية بين المدن والقرى، ونتج عن ذلك اختصاص أكثر في العمل. وازدهرت مدن آهلة بالسكان في السهول والأودية، وفي أماكن لم تكن مأهولة حتى ذلك الوقت. وبدأت التجارة تتخذ شكلاً دولياً. وكان توسع الاتصالات التجارية والثقافية بين أجزاء سورية، (في فلسطين ولبنان وبلاد بابل من جهة)، وبين مصر من جهة أخرى، عاملاً أساسياً في حياة هذه البلاد في العصور التالية. وقد نشطت الحياة في جميع مظاهرها نشاطاً عظيماً (مثلما نشطت في العصور الحديثة بعد اكتشاف البخار والقدرة الكهربائية)[41]".

ويقول ويل ديوارانت حول النحاس[42]:

"وربما كان ذلك حوالي 3500 سنة ق.م في المنطقة التي تحيط بالطرف الشرقي من البحر المتوسط حين وقع الناس على فن صهر المعادن واستخراجها من مناجمها. ثم بدأوا في صبها نحو1500 ق.م فكانوا يصبون النحاس المصهور في إناء من الطين، أو الرمل، ثم

---

(40) نفس المصدر السابق.
(41) نفس المصدر
(42) قصة الحضارة ج 1 ص 178 - 179.

يتركونه يبرد على صورة يريدونها مثل رأس الرمح أو الفأس، فلما أن كشف الإنسان عن هذه العملية في النحاس استخدمها في مجموعة منوعة من المعادن الأخرى، وبهذا توفر للإنسان من العناصر القوية ما استطاع به أن يبني أعظم ما يعرف من ضروب الصناعة".

"وقد أظهر التحليل الكيمائي لنصْلِ فأس من أوائل القرن الرابع عشر اكتشف في رأس شمرة، ليس فقط معرفة إذابة الحديد، وإنما معرفة مزجه بمعادن أخرى لصنع مزيج الفولاذ، وكان هذا الأمر مجهولاً حتى ذلك الوقت. واهتم الكنعانيون بالبحث عن المعادن لجعل الحديد قاسياً، وعن القصدير لأجل مزجه مع النحاس لصنع البرونز، وعن الذهب والفضة، ولذلك قاموا برحلات طويلة خارج بلادهم، ووجدت صحون الفضة بين غنائم الفراعنة من سورية، واكتشف ميزان أحد الصاغة وأوزانه في رأس شمرا[43]"

وتشيد أشعار هوميروس بصناعة المعدن وبالفنون الفينيقية. وقد ذكرت أن صحنا من الفضة "عمله، بدهاء، الصيدونيون الحاذقون في الصناعات اليدوية الدقيقة؛ هو في جماله أحسن شيء من نوعه في العالم كله[44]"

---

[43] د. أحمد داود "تاريخ سورية القديم". ص: 179- راجع schaefer. ugaritica. p 110 N2

[44] "الياذة هوميرزس" الكتاب 23، ص: 740- 745.

تطور العائلة وظهور الطبقات الاجتماعية

في هذه المرحلة "نجد أن الإقامة التي تتطلبها الزراعة قد أوجدت فكرة التملك العقاري، وفكرة الارتباط بين الإنسان وحقله، وبين الإنسان وبيته. ومن ثَمَّ أوجدت استقلال العائلة والكيان الاقتصادي لها".

فحلّت كفاية العائلة نفسها محل كفاية العشيرة نفسها، وسمحت هذه الحالة للعائلة بالتطور نحو حالة البيت الكبير، إلى طبقة الأشراف، وأصبحت حاجات أهل هذه الدرجة أرقى مما قبلها، فأدى ذلك إلى الأخذ بتميز العمل، ونشوء طبقة الصنّاع من أسرى الحرب المستعبدين عند أصحاب البيوتات الكبيرة، ومن الذين لم يحصلوا على نصيب وافر من الأرض الصالحة للزراعة، أو الذين عجزوا، بسبب من الأسباب، عن الأعمال الزراعية الكافية للقيام بأودهم مستقلين معتمدين على أنفسهم.

"وهكذا نرى التميز الاجتماعي يقود التميز الاقتصادي ليكون الأشراف طبقة دونها طبقة العامة من أرقاء أو داخلين في نظام المنـــزل القائم بنفسه، ودون هذه من الوجهة الاجتماعية طبقة العبيد[45]".

حول هذا الموضوع جاء في قصة الحضارة لويل ديورانت[46]

---

[45] "نشوء الأمم".

[46] ج 3 ص 35. فهرس [23]

عن السومريين: "وكان أهل البلاد (الأغنياء منهم والفقراء) ينقسمون إلى طبقات ومراتب كثيرة، وكانت تجارة الرقيق منتشرة بينهم، وحقوق الملكية مقدسة لديهم. ونشأت بين الأغنياء والفقراء طبقة أفرادها من صغار رجال الأعمال، وطلاب العلم، والأطباء والكهنة".

كما يتضح التمايز في الأعمال بين الرجل والمرأة، ويصف ديورانت وضع المرأة البابلية كعضو هام فيقول[47]: "كان لابد لها لكي تؤدي أعمالها الكثيرة، من ولادة الأبناء وتربيتهم، ونقل الماء من النهر والآبار العامة، وطحن الحبوب، والطهو، وغزل الخيوط ونسجها، وتنظيف دارها، كان لابد لها لكي تؤدي هذه الأعمال من أن تكون حرة في غدوها ورواحها بين الناس، لا تكاد تفترق من هذه الناحية عن الرجل في شيء (الفهرس 124). وكان من حقها أن تمتلك الثروة، وتستمتع بدخلها، وتتصرف فيها بالبيع والشراء، وأن ترث وتورث (الفهرس 125)، ومن النساء من كانت لهن حوانيت يتّجرن فيها، إلخ".

ولعل بوسعنا الآن أن نتخيل الوضع الاجتماعي العام في سائر المتحدات السورية في مختلف القرى والمدن في هذه المرتبة. فقد بدا التخصص في شتى الأعمال، وظهرت الحرف والصناعات على نطاق واسع، كما توسعت أعمال البيع والشراء. وظل التمايز

[47] نفس المصدر ج: 2، ص: 233، والفهرس 124 و125.

الاقتصادي مرافقاً للتمايز الاجتماعي، وبدت الأسرة وحدة اجتماعية - اقتصادية، يتقاسم أفرادها الأعمال في نطاق هذه الوحدة ولمصلحتها، وتحتل المرأة فيها دوراً هاماً وأساسياً..

ويقدم لنا وصف ويل ديورانت لصناعة النسيج وصياغة الذهب، فرصة استقراء الترابط بين تقدم المهن وارتقاء مستوى الحياة الاجتماعية، والتناسب الطردي بين دقة الصنعة، وارتفاع مستوى الذوق العام، والميل إلى الرفاه.

وتعطينا مشاركة النساء في ورشات النسيج فكرة واضحة عن تعقد الحياة ومتطلباتها إلى الحد الذي جعل المرأة تضيف، إلى أعبائها المنـــزلية، مَهمات أخرى خارج المنـــزل تزيد من خلالها دخل الأسرة على قاعدة العمل التعاوني ضمن وحدة العائلة.

يقول ديورانت[48]: "وكانت صناعة النسيج واسعة الانتشار يشرف عليها مراقبون، يعينهم الملك على أحدث طراز من الإشراف الحكومي على الصناعات عرف حتى الآن".

"وقد وجدت حول المعابد معامل وورشات ملحقة بها، منها معمل للنسيج كان ينتج أثني عشر نوعاً من أنواع النسيج الصوفي. وتذكر الألواح المكتشفة فيه أسماء النساء اللواتي كن يعملن في المعمل، وما كانت تستهلكه كل واحدة منهن من الصوف وكمية إنتاجها، وما كان يعطى لها من أجر ومؤن".

---

[48] "قصة الحضارة" ج:2، ص: 23.

"وأما صياغة الذهب فقد بلغت مستوى رفيعاً كما يدل على ذلك ما وجد في مقابر أور التي يرجع تاريخها إلى عام 4000 ق.م، فهي تنم عن ذوق راق، ومصقولة أجمل صقل. وفي متحف اللوفر مزهرية من الفضة كجسم لـــ"غوديا"، ولكنها مزينة بصور الحيوانات المنحوتة نحتاً جميلاً".

وفي مكان آخر يصف مهناً مختلفة لدى البابليين[49]:

"وكان غير الفلاحين من الأهلين يحفرون الأرض، ويعثرون فيها على الزيت، ويستخرجون من باطنها النحاس والرصاص والحديد والفضة والذهب. ويصف لنا استرابون كيف كان ما يسميه "النفط والإسفلت السائل" يستخرج من أرض الجزيرة كما يستخرج منها اليوم. وفي مستهل الألف الأولى قبل الميلاد بدأ الأهلون يصنعون الآلات من البرونز ثم من الحديد، فكانت لا تزال تصنع من الحجر في أيام حمورابي. كما بدأت صناعة صهر المعادن وسبكها وكانوا ينسجون القطن والصوف. وكانت الأقمشة تصبغ وتطرز بمهارة جعلتها من أثمن السلع التي تصدّرها بابل إلى خارج البلاد، التي وصفها كتّاب اليونان والرومان أحسن وصف، وأثنوا عليها أجمل الثناء[50]. كذلك نجد النساج وعجلة الفخراني في أقدم عهود التاريخ البابلي. وكانت الصناعات والحرف كثيرة متباينة، وكثر المهرة من الصناع وتألفت منهم، في

---

[49] نفس المصدر. ص: 201 - 202.

[50] الفهرس 31 من "قصة الحضارة" ج2 من نفس المصدر السابق. والفهرس 32.

عهد حمورابي، نقابات كانت تسمى (القبائل) يشترك فيها الصبيان والمعلمون، وكانت تستخدم في النقل عربات تحوي على عجلات تجرها الحمير. وأول ما ذُكر الحصان في السجلات البابلية كان عام 2100 ق.م. لما استخدمت هذه الوسيلة من وسائل الانتقال، وانتشرت التجارة، وامتدت من داخل البلاد إلى خارجها، وأثْرت بفضلها بابل، وأضحت مركز تجارة الشرق الأدنى، وكان انتشارها عاملاً مساعداً على ارتباط أمم البحر المتوسط القديمة ارتباطاً جنت من ورائه الخير والشر معاً.

وقبل أن ندع هذا البحث إلى طور الثقافة التجارية نود أن نتبع دور الكنعانيين أيضاً في مضمار الحرف الصناعية المختلفة لما في ذلك من فائدة في تقصي دلائل التماثل في شتى نواحي التطور الحضاري بين غربي الوطن السوري ومشرقه، الأمر الذي يؤكد من جديد استمرار الدورة الحياتية الكاملة بين جميع متحدات هذا الوطن، والتي من شأنها أن تؤدي إلى اكتمال تكون المتحد الأتم أو نشوء وحدة الأمة.

لقد كان أصحاب الحرف والتجار في مناطق الكنعانيين أيضاً يحتلون مكانة متوسطة في المجتمع بين الطبقة العليا من الملاكين والمحاربين، والطبقة الدنيا المؤلفة من عبيد الأرض والأرقاء.

وقد بلغت صناعة الخزف ذروتها قبل عام 1500 ق.م وكان التأثير البابلي ظاهراً فيها من 2000 ق.م، واستعمال دولاب

الخزّاف، منذ أوائل الألف الثاني ق.م، أعطى المصنوعات الخزفية صفات وأشكالاً متناسقة، وأخذت الأشكال الأمورية القديمة بالزوال، واستخدمت الأواني القبرصية كنماذج، كما تدل مكتشفات أوغاريت وغيرها من الأماكن.

وكان الكنعانيون متفوقين، لا يبارون في صنع المعادن، في عصر البرونز المتوسط والأخير (2100 - 1200) ق.م

عصر الثقافة التجارية

يتضح لنا، من خلال ما تقدم من شواهد تاريخية أثبتتها الوثائق والحفريات الأثرية، حقيقة التطور الذي رافق تقدم الزراعة الراقية على صعيد الحرف والصناعات النشيطة التي كان في مقدمتها تطوير أدوات الزراعة لغرض الحرث، أو الزرع والحصاد، أو تصنيع المحاصيل الزراعية، أو المنتجات الحيوانية، الأمر الذي أدى إلى:

- زيادة الإنتاج الزراعي، وزيادة موارد الغذاء.
- تحرر الجهد البشري من الانصراف الكلي لتحصيل الرزق، وتوفر الوقت الكافي لتوجه النشاط العقلي إلى مجالات التنظيم الاجتماعي، وآفاق الإبداع والتجديد والابتكار في شتى المجالات الفكرية والفنية وغيرها.
- مبادلة الفائض من الإنتاج الغذائي بما ينتجه المهرة من صناع الأدوات والسلع، مما أدى بالتدريج إلى قيام تجارة

داخلية نشيطة، ثم إلى قيام نوع من التصدير والاستيراد مع الأمم المجاورة.

- اتخاذ التجارة الداخلية شكلاً من أشكال التفاعل الإيجابي الواسع النطاق داخل المجتمع، أو شكلاً من أشكال التواصل بين المتحدات. وكان له شأن إلى جانب عوامل التفاعل الأخرى، الإيجابية منها: كالتزواج وما ينجم عنه من علاقات مصاهرة وقرابة. والسلبية أيضاً: كالسيطرة السياسية وما ينجم عنها من تعامل الغالبين والمغلوبين، ومن مظاهر التغيير العديدة في مجالات العمران والعبادات والشرائع.
- مساهمة النشاط الاجتماعي - الاقتصادي المتبادل بين المتحدات في توحيد أنماط الحياة والتفكير والعادات والتقاليد.
- المساهمة في تسهيل سبل النقل الحضاري، أخذاً وعطاءً، نتيجة الاحتكاك بالأمم الأخرى بوساطة التجارة الخارجية (الانترناسيونية)، الأمر الذي نجم عنه ذلك المد الفكري للأمة السورية الذي أعطاها صفة الأمة السورية.

يقدم سعادة عرضاً تحليلياً لكيفية التدرج في بلوغ هذا الطور فيقول[51]:

"... وارتقاء التعاون المركّب في المدينة، أبقى حاجات كثيرة، حاجية وكمالية غير قابلة السد في المجتمع نفسه، فأدى ذلك

---

[51] "نشوء الأمم" ص: 80 وما بعد..

النقص الكبير إلى اتخاذ الحرب المنظمة وسيلة للتعويض عنه. هكذا الغزوات الآشورية والكلدانية لأخذ الجزية التي كانت تحتاج إليها بلاليط نينوى وبابل.

وسط هذه الحروب، وفي هذا النقص العمراني من بلوغ مستوى راق من الثقافة الإنسانية، كان الكنعانيون يتخذون اتجاهاً جديداً.

إنهم ساهموا في الحالة العامة التي وصفناها آنفاً، وغزا فرع منهم، وهم الهكسوس، مصر[52]. لكنهم لم يغرقوا في الحرب، بل اهتموا بالتغلب على صعوبات الحاجات العمرانية بترتيب ثقافتهم الاقتصادية على أساس زراعة راقية غنية جداً، حتى سمي وطنهم الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً. وتنبهوا باكراً إلى إمكانية التوسع والحصول على أكبر نصيب من كماليات العمران عن طريق غير طريق الغزو، وفرض الجزية عن طريق التجارة، فتوسعوا في أرضهم، وتوجه شطر منهم شمالاً على شاطئ البحر غربي لبنان، واحتل كل هذا الساحل الخصيب الذي عرف فيما بعد باسم فينيقية، نسبة إلى هؤلاء الكنعانيين[53] الذين لوحتهم الشمس على رمال الشاطئ وأمواج اليم، أو نسبة للأرجوان الذي كانوا يصنعونه. أنشأ هؤلاء الكنعانيون المدينة البحرية التي امتازت

---

(52) أنظر أدوار ما يرج 1. فقرة 204 ص: 215 / أيضاً ف. 303 ص: 313.
أيضاً ف. 304. وغريفت - تايلر، كتابه 119- 121 يسميهم الملوك السوريين.

(53) "ما يرف" ص: 256 ص 422.

بصفات ثقافية خاصة، وأصبحت المثال الذي احتذته الأمم التي دخلت في نطاق المدنية السورية[54] كالإغريق والرومان. وأهم خصائص هذه الثقافة أنها توجد تلاؤماً بديعاً بين شؤون سلك البحر وشؤون زراعة تتطلب عناية أكثر مما تتطلب جهداً عضلياً. فوراء المدينة، في الهنترلند (Hinterland)، قامت زراعة لها خصائص اتخذت مثالاً نقلت عنه الأمم الأخرى هي غراسة البستان التي جمعت بين الأشجار المثمرة والبقول والحبوب. إن فن البستان والكرم والعناية بالأشجار المثمرة في تشذيبها وتحسين نتاجها، هو فن زراعي سوري ترده تقاليد الأمم إلى الفينيقيين[55]. ودلابلاش يقول: "إن عالم البحر المتوسط اقتبس هذا النوع من الحضارة عن الشاطئ السوري ما بين طرابلس وجبل الكرمل".

وكما أسلفنا، كانت التجارة الطور الأول للثورة السورية الثقافية، فسارت قوافل السوريين إلى مصر، وإلى الأناضول، واليونان براً، وجرت مراكبهم على سطح البحر لتكتشف، في غربه وشماله، أقواماً لا تزال في طور الوحشية أو البربرية، وتنشئ معها علاقات تجارية سلمية نتج عنها ربح مادي للمكتشِفين، وربح ثقافي للمكتشَفين (بفتح حرف الشين).

ولم يكن هذا الطور التجاري مقتصراً على نقل البضائع بين مكان وآخر، بل كان يقوم على نشوء صناعات عديدة ونموها،

---

(54) دلابلاش ص: 138.

(55) دلابلاش ص: 138، أيضاً ص: 214.

كالنسيج والصبغ، وصنع الزجاج، وما شاكل، فضلاً عن صناعة القوارب والمراكب التي بقيت صناعة قومية بحتة لا يقصد منها التصدير.

وقد أوضحنا أن التجارة هي أحد العوامل العظمى في تفاعل الثقافات، وأحد العوامل الاقتصادية الكبرى. فالتجارة مكنت السوريين من التعويض عن فقر أرضهم في المعادن، وعن نقص المواد الخام التي يحتاج إليها مجتمعهم الآخذ في النمـــو والارتقاء المدني ومهدت لهم، بوساطة ما أحدثوه من سلك البحر، الانتقال إلى طور آخر عظيم الأثر في العمران هو طور الاستعمار الذي أدخل البحر المتوسط كله في نطاق هذه الثقافة السورية الجديدة التي هي بدء التمدن الحديث.

جاء فيما كتبه ويل ديورانت حول ذلك النشاط (الاستعماري) للفينيقيين[56]: "وأقاموا لهم حاميات في نقط معينة على ساحل البحر المتوسط ما فتئت تكبر حتى أضحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان، أقاموها في قادز، وقرطاجة، ومرسيليا، ومالطة، وصقلية، وسردانية، وكورسيكا، بل وفي إنكلترا البعيدة. وكانوا يسيطرون على قبرص، ثم سيطروا على ميلوس ورودس".. ويتابع: "و... ربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية، وشرعوا ينتشلون أوروبا من براثن الهمجية".

---

[56] "قصة الحضارة" ج: 2 الباب 11 الفصل الثاني ص: 313.

وليس أدل على أهمية هذه الخطوة السورية المبدعة لتقدم الثقافة العمرانية وانتشارها، من النظر إلى حالة الأقوام البربرية التي دخلت في نطاق هذه الثقافة الجديدة عند أول عهد السوريين بها.

خذ الإغريق مثلاً، فإن حالتهم بالنسبة إلى ما كان عليه الفينيقيون من ثقافة هي كما وصفها هوميروس[57] "مشابهة لحالة برابرة إفريقيا تجاه الشعوب التجارية الحديثة، فقد كان المركب الفينيقي يرسو على الشاطئ الإغريقي حاملاً أنواعاً عديدة من المنتوجات المصنوعة في بلاده للّبس، والزخرف، وبعد أن يشتري التجار رضى الأمير كانوا يعرضون بضاعتهم التي كانوا يبدلون بها من الإغريـــق موادَّ خاماً: كالقمح، والخشب، والجلود، والمعادن الخام، والعبيد، وما شاكل. أما البضاعة السورية فكان فيها النسيج، وأصناف كثيرة من المصنوعات المعدنية، والأرجوان الذي اشتهروا به، وغير ذلك".

"من الثقافة الزراعية الصناعية البحتة التي وسعت نطاق تمييز العمل بوساطة تحرير الأيدي الذي أدخله المحراث، ومكنت النظام الداخلي من الارتقاء إلى المدينة والدولة، خطا السوريون الكنعانيون والآراميون إلى التجارة وثقافة الإنتاج التجاري التي تتصل بأمكنة بعيدة، وتمتد إلى موارد واسعة جداً وتدخلها في نطاقها، ونتج عن هذا الطور الخطير، عدا الاستعمار الذي أشرنا إليه، معرفة العالم وما فيه من ثروات، وترقية فن سلك البحار،

---

[57] ذكره مار – لير ص: 174.

وربط أماكن المواد الخام بمراكز الثقافة التجارية الجديدة، فكان التقدم من الوجهة العمرانية الاقتصادية عظيماً.

ابتدأ العمل العقلي في هذه الثقافة يرجح على غيره فالتجارة عمل عقلي (parexellenee). فكان على الذين أوجدوا الثقافة الاقتصادية الجديدة أن يبتدعوا الطريقة العملية للحياة العقلية، ويضعوا أساساً جديداً متيناً للثقافة الإنسانية. كان على سورية أن تكمل قدرتها الثقافية وتفتح طريقاً جديدة للارتقاء الثقافي، فاستنبط الكنعانيون الأحرف الهجائية، فتمت قاعدة التمدن الحديث.

في طور الثقافة الزراعية الصناعية القائمة بأود المجتمع عن طريق العائلة والتملك الشخصي، نجد نموّاً في النظام الاجتماعي الاقتصادي القائم على طبقات ثلاث: الأشـــراف، الصناع، الأحرار، والعبيد. فقد زال نظام العشيرة القائمة بأودها، وحل محله نظام الدولة الملكية ثم الجمهورية، ولكن موارد هذه الثقافة اقتصرت على بيئتها.

أما الثقافة التجارية فإنها نظمت العمل في وحدات مشتركة، وأوجدت معنى الرسمال الهام. كان الرسمال، قبل نهضة التجارة بين الأمم، فردياً يستعمل في الإنتاج لسد الحاجة مداورة للتبادل الداخلي الذي هو من أهم عوامل تنظيم المجتمع العمراني، ولكنه لم يكن عاملاً في تنظيم الاقتصاد والعمل. أي أنه لم يكن رسمالاً بالمعنى العصري. لكنه في الثقافة التجارية أصبح ذا قيمة قومية لأنه تناول تنظيم العمل للإنتاج الواسع بقصد الاتجار مع الأمم

وتموينها، بما تحتاج إليه، عن طريق أفرادها وجماعاتها، لقاء الحصول على ما يغطي نفقة العمل ويعطي الرسمال، نتيجة تنظيمه الإنتاج والأسواق، ربحاً ينمّي الثروة القومية التي أصبحت في هذا الطور تحت حماية الدولة. ومع هذه الخطوة الواسعة نشأ الاقتصاد القومي الذي لا يزال يسيطر على المجامع البشرية والثقافية المدنية الحاضرة.

في هذه الثقافة ابتدأ توزع العمل، وتميز بين الرجال. أما المرأة فإنها بقيت ربة البيت، أو أن عملها المميز هو القيام بجميع شؤون المترل. وظلت القرابة الدموية الفاعل الأقوى في النظام الاجتماعي الاقتصادي.

إذ كانت الحرفة تبقى في العائلة، يعطيها الأب لابنه وللأقربين إليه من بعده، وكذلك إرث الثروة. كان ذلك أهم عامل في التمييز الاجتماعي. وبه تحددت الطبقـــات تحدداً شديداً أدى إلى نضال عنيف ضمن نطاق الدولة، ومشادة بين الأرستقراطية الوراثية وطبقة العامة.

وقد تمكنت التجارة الفينيقية من أن تزيد العمل بوساطة العبيد الذين كان الفينيقيون يشترونهم ويوزعونهم على الأعمال المختلفة، فظلت العائلة محتفظة بمركزها أساساً للتنظيم الاجتماعي، ولكنها لم تعد وحدة اقتصادية قائمة بأودها، بل أصبحت تعتمد على الإنتاج التجاري المنظم بالرسمال، الأمر الذي أدى إلى ما يعرف بالعمل البيتي للصناعات اليدوية.

الإصلاحات

وفي هذه الثقافة أيضاً، فيما بين النهرين، كان في كل مدينة نزاع داخلي[58] بين الملك والهياكل التي كانت بمنـــزلة مؤسسات كهنوتية اقتصادية لها إدارتها الدينية، والعقارية، والتجارية. وكان النـــزاع يشتد بحسب الظروف بين الهياكل والعروش، خصوصاً حين يكون الملك صالحاً محباً للشعب، عاملاً لتحريره من الإقطاعية والكهانة.

في وجه الأرستقراطية أدخلت سياسة الملك التجار والصناع والبحارة في هيئة المدينة القضائية، وقد نشأ بينهم طبقة من رجال أثْرت من التجارة ومن الملاكين العقاريين المستقلين.

لقد أنجزّ الهيكل مع الحركة الاقتصادية، وصارت خزينته تطفح بالذهب والفضة، فأخذ يستغلها بإعطائه التجار قروضاً بفائدة تدر عليه كثيراً.

بين طبقة الفلاحين والرعاة الدنيا، والصنّاع من جميع الحرف، والبحارة الذين يشكلون طبقة عمال حقيقية، ظهرت مطالب اجتماعية.

يقول جاك بيران: "إن نظامين اجتماعيين يقفان وجهاً لوجه: الواحد أرستقراطي تمثله، بصورة أساسية، الهياكل، والآخر تمثله

---

[58] أسد الأشقر "تاريخ سورية" الجزء الأول ص: 103.

الطبقة البورجوازية النامية[59] والملك، إضافة إلى البورجوازيين والشعب".

ويقول المؤرخ ويل ديورانت[60]: "لما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس نهض أوركاجينا كما نهض لوثر فيما بعد، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزرّاع والصيادين ثمرة كدهم. وأفلح وقتها في تطهير المحاكم من الموظفين المرتشين الفاسدين، وسن قوانين لتنظيم الضرائب والرسوم التي تؤدّى للمعابد، وحمى الضعفاء من ضروب الابتزاز، ووضع الشرائع التي تحول دون اغتصاب الأموال والأملاك".

ثم أرفق أوركاجينا إصلاحاته الجذرية بشريعة أعلنها على شعبه، وكانت الشريعة الأولى، وهي التي عرفت بشريعة "لبت عشتار"، وأوحت لحمورابي، بدون شك، كتاب الشرائع الذي كان هدية سورية الأولى للعالم القديم، وللحضارة العالمية.

يقول أسد الأشقر[61] "من الناحية الفلسفية والاجتماعية، أطلقت وحدة سرغون السياسية والقومية تلك التيارات الفكرية الجديدة التي رافقت خطوط التجارة، وتحركات المواطنين في جميع المناطق الممتدة من الخليج إلى طوروس، ومن الخليج إلى المتوسط وبالعكس، فنتج ذلك التفاعل الثقافي واللغوي والاجتماعي الذي

---

(59) جاك بيران "حضارات قديمة": ص 43.

(60) "قصة الحضارة" الجزء الثاني من المجلد الأول. ص 30.

(61) "تاريخ سورية" – الجزء الأول ص: 124 أسد الأشقر.

شرع بتكوين مجتمع جديد، ومفاهيم جديدة، وبالتالي إنسان جديد. ولم يكن سهلاً، حتى بعد زوال سلالة سرغون، إيقاف ذلك الغليان العاطفي، والوعي الفكري والاقتصادي الذي تولّد من تلك الحركة الجبارة".

ثم يتابع: "إذا كانت سومر لم تتمكن في عهدي غوديا وشولشجي التقدميين من إقامة وحدة كبرى كوحدة سرغون، فإنهما طورا النصوص القانونية الجديدة: فاتجه القانون نحو تحرير الفرد بصورة كاملة، وأصبحت المرأة ذات شخصية مستقلة عن الرجل: الزواج يتم بعقد رسمي ولا ينفصم إلا في المحاكم حيث يتساوى الرجل بالمرأة تماماً.

وعلى غرار سياسة السرغونيين الإيجابية المرنة تصرف ملوك ماري. إن تفاعلهم الماضي مع الحضارة السومرية أهّلهم لأن يتصرفوا على غرار ملوك أور.. في عهد أيدم داغان، أقيمت العدالة بمراسيم ملكية".

مع قيام الدولة البابلية الأولى ونجاح حمورابي في بسط سلطانه على كامل الهلال الخصيب، قضي على نظام المدينة والإمارة العاجزة عن إقامة أوضاع مجتمعية متآخية عادلة، متحررة بصورة شاملة، واستؤنف السير الحضاري، ورسخت المفاهيم السياسية والاجتماعية في المجتمع كله على امتداد البيئة الطبيعية بشكل يفسح في المجال، أمام المواطنين جميعهم، للتفاعل الأشمل في الفكر والدين والاقتصاد واللغة، ويشيع

الروح المجتمعية - الإنسانية في وجدان الشعب كله ويقوم بدوره الرسولي لبناء حضارة عالمية.

ويعقّب أسد الأشقر قائلاً[62]: "وها هي هذه البيئة الحضارية الرسولية المعلمة تدفع بإنسان جديد ليجدد ما أبدعه سرغون الكبير، ويزيد عليه خلقاً وإبداعاً؛ فما إن تسلم أزمّة الحكم حتى شعر في وجدانه أنه مدعو لتأدية رسالة مجتمعية إنسانية، ولم تمض سنتان على عهده حتى كان قد نضج في وجدانه وعقله مشروعه التشريعي الكبير، فجمع قوانين بلاده وأعرافها وأكملها، ومثل أمام شمس إله العدالة ليتسلمها منه شريعة "كاملة" يحكم بموجب نصوصها.

إن نظرة متفحصة واعية إلى ما قدمناه من شواهد تاريخية حول قيام إصلاحات أوركاجينا ودولة سرغون الموحدة، وتشريع حمورابي الشامل، لهي كافية لأن تضعنا أمام حقيقة التطور الاجتماعي الكبير نحو مزيد من توطيد الوحدة، وشمولية التماثل والتمازج، بمعنى آخر: نحو قيام الدورة الحياتية الكاملة، وأمام حقيقة التطور الاقتصادي المتنامي بفعل توسع النشاط التجاري وازدياد الثروة.

هذه الحقيقة، حقيقة التطور الاجتماعي الاقتصادي الكبير، هي التي كان لها الأثر الفاعل في عقل كل من أوركاجينا وحمورابي وغيرهما. فالمصلح الاجتماعي هو ابن مجتمعه البار الذي

---

(62) نفس المصدر ص: 137.

يعبّر عن تطلعات المجتمع نحو الأفضل، وإن من شأن إجراءاته وإصلاحاته أن تساعدنا على استقراء أوضاع المجتمع في عهده. وإنه لفي وسعنا الآن أن نقف على معظم تلك الأوضاع الاجتماعية التي كانت سائدة قبل حمورابي، وتلك التغيرات التي أحدثتها تشريعاته النابعة من صميم حاجة المجتمع وتطلعاته إلى التقدم والارتقاء.

قبل حمورابي كانت قوانين المدن الراقية تتسرب إلى الأرياف بصورة بطيئة، وكان الإقطاعيون والكهنة والأمراء يقاومون انتشارها ليطول أمد استغلالهم وطغيانهم. ولكن عهد حمورابي "كسر جميع الدوائر المغلقة على الشعب، كما يقول أسد الأشقر[63]، ودفعه إلى الخروج من سجونه المتنوعة: عبودية الأملاك الأميرية والإقطاعية والكهنوتية. والفلاح حُرّر نهائياً، وأصبح قادراً على أن يترك الأرض التي ألصق بها مرغماً، وحراً في أن يمتلك ما يريد. وبما أن حالته المادية والنفسية كانت تمنعه من ممارسة حقه بالمساواة مع الأحرار، كانت له في القوانين الجديدة امتيازات تشجعه على الوصول مادياً ونفسياً إلى مستوى الأحرار، فهي تخوله أن يتزوج بدون أن يدفع مهراً، وأن يدفع نصف أتعاب الأطباء والمهندسين والأطباء البيطريين وغيرهم من أصحاب المهن الحرة.

(63) "تاريخ سورية" – الجزء الأول ص: 140– أسد الأشقر.

وهذا الوضع الاجتماعي الجديد يؤدي، حتماً، إلى انتقال الملكيات الخاصة، وتحرك الثروة الحرة، وإلى نشوء رأسمالية، كانت في ذلك الزمان مرحلة تقدمية جديدة، فالرأسمالية تستهدف الإنتاج، وهي تتضمن رغبة في استثمار مكثف للأراضي، وتختلف كلياً عن النظام الإقطاعي السابق الذي لم يكن يطمح إلا إلى اكتفاء شاغليها.

هذا الأسلوب الجديد في تميز جميع المشاريع الزراعية والصناعية والتجارية، حرك نشاط الشعب، وطاقته الإنتاجية، كما حرك الثروة التي يملك، فكان نمو اقتصادي ورفاهية لم يسبق لهما مثيل في حياة الشعب.

إن الثروة الشخصية التي نمت في يد الأفراد شجعتهم على استكمال تحررهم مادياً ونفسياً، وعلى ممارسة حقوقهم الكاملة التي يعطيهم إياها القانون، وعلى الشعور بواجباتهم نحو الدولة التي أوصلتهم إلى هذا المستوى من الحرية، والمساواة، والعدالة، وإنّ المخيم في جميع أنحاء البلاد حرك التجارة العالمية من جديد، وكان في ذلك موارد للثروة لا تحد".

يقول جاك بيران[64]: "اتسعت في عهد حمورابي فكرة المسؤولية حتى شملت مبدأ حق التعويض عن كل عطل وضرر، فهي تلزم السلطات العامة نفسها بالتعويض عن أي عمل جنائي

[64] جاك بيران "الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي"- الجزء الأول ص: 34.

لم تقـــدر أن تمنعه أو تقمعه. هذا التشريع الذي حرك المعاملات العقاريـــة وسهّلها، شجع على التجارة، ورافقته تدابير اجتماعية معيـــنة، فعقدُ العمل أصبح خاضعاً للقانون الذي يحدد المسؤولية المتبادلة بين الموظّف والموظّف. وقد لحظ حداً أدنى للمرتبات في جميع الحرف، وفرض على جميع المقاولين الصناعيين والزراعيين أن يعطـــوا موظفـــيهم شهرياً عطلة ثلاثة أيام مدفوعة الأجور. وشؤون التدريب على المهن، واستئجار السفن، وأتعاب الأطباء والمهندســـين، نُظمـــت بموجب قانون جزائي مدهش، بالنسبة لقدمـــه، ولما فيه من كمال المبادئ القانونية التي كان يستهدف حمايتها".

ويقـــول ول ديورانـــت[65] مصوراً حالة توظيف الدين في خدمـــة المجتمع: "وبلغ من حذق حمورابي أن خلع على سلطانه خلعة من رضى الآلهة، بالرغم من أن قوانينه كانت تمتاز بصبغتها الدنيوية غير الدينية. من ذلك أنه شاد المعابد كما شاد القلاع، واسترضى الكهنة بأن أقام لمردوك وزوجه إلهي بابل، في مدينة بـــابل، هيكلاً ضخماً، ومخزناً واسعاً ليخزن فيه القمح للأهلين وللكهنة، وكانت هاتان الهديتان وأمثالهما في واقع الأمر بمنـــزلة مـــال يســـتثمر أبـــرع استثمار جنى فيه ربحاً وفيراً، هو الطاعة الممتزجة بالرهبة التي يقدمها إليه الشعب.

[65] ديورانت "قصة الحضارة" الجزء الثاني من المجلد الأول ص: 193.

واستخدم ما حصل عليه من الضرائب في تدعيم سلطان القانون والنظام، واستخدم ما تبقّى بعد ذلك في تجميل عاصمة ملكه، فأنشئت القصور والهياكل في جميع نواحيها، وأقيم جسر على نهر الفرات حتى تمتد المدينة على كلتا ضفتيه.

وأخذت السفن التي لا يقل بحارتها على تسعين رجلاً تمخر عباب النهر صاعدة فيه ونازلة، وأضحت بابل، قبل ميلاد المسيح بألفي عام، من أغنى البلاد التي شهدها تاريخ العالم قديمه وحديثه.

البرابرة

لكن البرابرة خربوا الحضارة السورية مرة ثالثة. يقول أسد الأشقر[66]: "ففي 1685 ق.م مات حمورابي تاركاً ذلك العالم الجميل العظيم الذي صنعته يداه وعبقريته، وكانت الوحدة المجتمعية طرية العود عندما بلغ غليان البرابرة وراء زغروس وطوروس نقطة الانقضاض. فلم يعط ذلك الهيكل المجتمعي العظيم فرصة التفاعل الكافي للتماسك والتراص في وجه الصدمات البربرية الهائمة في جوعها وشراستها، التواقة إلى المواطن المتحضرة الغنية".

وبعد غياب حمورابي بثمانية أعوام انقض الكاشيون على مناطق جنوب وادي الرافدين، وشنّوا حملات متلاحقة على بابل نفسها، فردتهم عن أسوارها خاسرين، ولكنهم تمكنوا من بلبلة

[66] "تاريخ سورية" الجزء الأول، ص: 148.

أطرافها، ومن نهب مدنها البعيدة وتدميرها، ومن التمركز في مناطق عدة من وادي الرافدين الأسفل.

لم يمضِ وقت طويل حتى تقلص نفوذ بابل في الشمال الغربي على سفوح طوروس وفي الغرب عامة، فراحت أقوام هندوروبية تتدفق من ممرات طوروس إلى الممر السوري الشمالي الشرقي المتجه نحو وادي الرافدين، وإلى الساحل السوري الممتد من ايسوس إلى صحراء سيناء.

لقد تحولت سورية بين فترة وفترة، إلى جزيرة حضارية غنية يطوّقها البرابرة، فلا يبقى أمامها إلا البحر والبادية السورية والعربية.

شمسو- ايلونه بن حمورابي وخليفته، يبني الحصون على حدود أكاد ليقي نواة الدولة المجتمعية من المخاطر المتزايدة، وآبي شوح خليفته يتابع بناء الحصون على دجلة، ولكن مدن سومر عانت تقهقراً شاملاً؛ فما بقي من البناء الجديد المنهار سوى العاصمة بابل، هذه المدينة التي أبت التنازل عن نشاطها الاقتصادي فأعادت بناءه تدريجياً. ولم تعد إلا مدينة تجارية، معزولة عن عالم استولى عليه البرابرة فجمد في نظام اقتصادي قبلي أو إقطاعي.

أما الساحل الغربي من الشمال إلى الجنوب فتناولته تحركات الأقوام البربرية بصورة شاملة.

وكأن هذه الأحداث كانت مترابطة، أو كأن وحدة الأرض شدت بعضها إلى بعضها الآخر، فخلال قرن كامل صارع ملوك

بابل ضد الموجة البربرية. بعدها اجتاح الآريون المختلطون بالحوريين المنحدرين بدورهم من مرتفعات إيران، وادي الرافدين حتى نوزي، وتقدموا شرقاً حتى حافة الفرات، ومن هناك وصلوا إلى فلسطين.

يقول جاك بيران[67]: "آشور غمرتها الموجة بكاملها، نزل الكاشيون حتى بابل، ولكن العاصمة صمدت جيداً ومملكة حلب صمدت أيضاً، ولكن الدولة الحثية الإقطاعية التي تأسست حوالي 1700 ق.م في الأناضول تفوقت عسكرياً. وهي لم تكتفِ بأن منعت الهجرة عبر حدودها، بل أن الجيش الإقطاعي الحثي تدخل في سورية في عهد ملكه حتوسيل الأول. وبعده هاجم مورسيل الأول حلب ودمرها. في 1580ق.م اندفع الخيالة الحثيون نحو بابل واعملوا فيها النهب والحريق".

"وبعد انسحاب الحثيين، كان سهلاً على الملوك الحقيرين من شعوب بلاد البحر أن يتقدموا بين خرائب العاصمة التي انتهكت حرمتها، ويقيموا سلطة مغمورة قدرت أن تستمر ستين سنة. وقد سقطت أمام دفعة جديدة قام بها الكاشيون على بابل حيث أقاموا سلالة كاشية بقيت حاكمة حتى سنة 1160 ق.م".

"وبعد قرن من البؤس نهضت آشور من جديد، وأعاد ملوكها في أواسط القرن السادس عشر ق.م بناء المدينة".

---

(67) "حضارات قديمة"، ص:130.

بعد 1580 ق.م يدخل السوريون مرحلة صراعية جديدة تتزعمها آشور تدريجياً. ومصر تتقدم نحو الممر السوري في الجنوب والوسط فتحتله لتقي حدودها من هجمات جديدة. وآشور، من أعلى الجبال، وهي واقعة تحت ضغط الميتانين- الحوريين، تراقب بصبر هذه الأوضاع الجديدة، وتعيد بناء عاصمتها، تقوّي نفسها عسكرياً، وتنتظر ساعتها.

لم تتألب قوى معادية في وقت واحد على شعب واحد، في أي زمن من أزمنة التاريخ، كما تألبت هذه القوى على السوريين حوالي 1500 ق.م: من قبائل بلاد البحر في الجنوب السومري، إلى الكاشيين في بابل وأكاد، إلى الميتانيين- الحوريين يطوقون شمالي سورية من جبال زغروس إلى شرقي آسيا الصغرى، إلى الحثيين المنحدرين نحو الشاطئ السوري الشمالي، إلى المصريين الذين يحتلون الممر السوري حتى جبال الأمانوس.

خمسة شعوب غريبة، أربعة منها شبه بربرية، وواحد يتقدم كمستعمر، تعمل كلها لتخريب هذه الحضارة التي كانت بنت مجتمعها، وبدأت تشع على من حولها في عهدي سرغون وحمورابي. هكذا يقول أسد الأشقر[68] الذي رأينا أن نأخذ بخلاصة تحليله العلمي الدقيق لتطور الأحداث، وتصادم الأقوام على الساحة السورية في مسيرة المجتمع السوري نحو الوحدة وقيام المتحد الأتم.

---

[68] "تاريخ سورية ونشوء العالم العربي"، ج:1 ص: 157 وما بعد..

يقول: "الممثل الأقوى والأول في هذه المأساة البربرية الكبرى، لحسن حظ المدنية، كانت مصر الحضارية. كانت مصر في أوج نهضة فكرية جديدة. وما إن أمنت حدودها الجنوبية من خطر الغزو حتى استأنفت سياستها التقليدية، فلحماية مصر من غزو محتمل من جهة الشرق، وضمان التوسع التجاري لمدن الدلتا، بدا أن إحكام السيطرة على سورية الساحلية، بعد طرد الهكسوس، أكثر ضرورة منه في أي وقت آخر".

ويبدو أن هؤلاء الهكسوس الذين تراجعوا أمام المملكة المصرية الجنوبية الثائرة قد فرضوا نوعاً من السلطة على الساحل السوري، وقد تمكن أحموس بمشقة (يدل عليها تدميره لأريحا) من استبدال حماية الهكسوس بحماية مصر لجميع المدن التجارية على الساحل، ولصغار الإقطاعيين في الداخل. في هذا الوقت كان كل ما تطلبه المرافئ السورية هو أن تكون حرة في التفرغ لأعمالها التجارية؛ فلم تهتم بالمقاومة. كما أن الفوضى التي نتجت عن الغزوات الآرية أدت إلى إعادة تركيب التجمعات السياسية.

في آسيا الصغرى غدت الإقطاعية الحثية في طريق صيرورتها ملكية إقطاعية موحدة، وفي شمالي وادي الرافدين وضعت الإقطاعية الآرية العسكرية أسس دولة واسعة أصبحت، بدورها، ملكية إقطاعية موحدة، هي مملكة الميتاني.

وعلى دجلة ظهرت آشور كقوة إقطاعية ثانوية. أما بابل، حيث توطنت السلالة الكاشية، فإنها كانت تمارس نشاطاً اقتصادياً يقتصر على التجارة.

في هذه الأوضاع الجديدة لم يكن من أمل لسورية إلا في مملكة آشور. آشور بقيت الجزيرة الحضارية السليمة في سورية كلها.

بينما كان الحثيون والمصريون يدشنون عهد سياسة القناعة والحكمة، وذلك بتوقيع معاهدة "قادش" التي نصت على اقتسام سورية الغربية بينهما، كان شلمناصر حاقداً على ما يجري في غربي بلاده، ينتظر بفارغ صبر الفرصة السانحة لينقضّ على مقتسمي بلاده فيصل إلى الشاطئ، ويغسل سلاحه بمياه المتوسط كما فعل سرغون من قبله في الخليج والمتوسط، وكما فعل من بعده شلمناصر الثالث.

الشعوب المفتقرة إلى بيئة طبيعية وجذور حضارية عميقة عريقة هي شعوب زائلة وإن أصبحت في فترة من الزمان قوية غالبة، فهي إما أن تمتصها الشعوب المغلوبة منتصرة بحضارتها مع الزمن على شدة الغزوات العابرة، أو أن تبعثرها أحداث جامحة.

جميع تلك الموجات البربرية العارمة كانت تبتلعها الحضارة السورية من أوائل القرن السادس عشر 1580 ق.م. إلى أواسط القرن الثالث عشر 1260 ق.م.

استهلكت الحضارة السورية حيويات شعوب خمسة هي شعوب بلاد البحر في سومر، والكاشيين في بابل، وأكاد والحوريين والميتانيين في الشمال، والحثيين في الشمال الغربي، وأنهكت مصر.

آشور ومسيرة الوحدة السورية

بينما كانت عهود البربرية والفوضى والقوات الدخيلة في سورية تتصفى في مرحلتها الأخيرة، وتنمو قوة آشور متغلبة تدريجياً في جميع الميادين السياسية والحربية إذا بموجة بربرية جديدة تجتاح منطقة شرقي المتوسط من غرب آسيا الصغرى حتى مصر وليبيا. أقوام جديدة متنوعة العروق تنهمر على المنطقة كالسيل الجارف فتقوض في طريقها دولة الحثيين، إلى الأبد، وتنحدر نحو الجنوب مجتاحة الساحل السوري من شماله إلى جنوبه، تحرق وتدمر وتنهب، وتستهدف مصر التي تعد أغنى الفرائس في نظرها. ولكن مصر، كأكثر المرات في تاريخها، كانت مستعدة، بفضل وحدتها السياسية العسكرية، لمواجهة الأحداث الجامحة.

ولكن كان لنجاحها في طرد الغرباء عنها أثر هام في حياة المجتمع السوري. في هذه الأثناء ثارت الجماعات الغريبة المستعبدة في مصر، وكان العبرانيون من بين هذه الجماعات "فلم يكن خروجهم من مصر إلا فصلاً من عملية طرد الأجانب... ولم تكن لهذه العملية أهمية كبرى بالنسبة للمصريين، فهي من جملة الأمور الثانوية التي وقعت وسط كارثة الغزو والاضطرابات التي رافقته، لذلك لم يحفظ ذكرها، لا في الوثائق ولا في التقاليد المصرية"[69].

كانت شعوب الشمال تغلي وتتدفق على سورية براً وبحراً. وتقول رواية معاصرة:

---

[69] جاك بيران "تاريخ الحضارة المصرية القديمة" ج:2 ص: 465.

"كانت شعوب الشمال تغلي في جزرها، ثم اندفعت كلها في موجة واحدة، لم يتمكن أي بلد من الوقوف في طريقها. بلاد الحثيين والكودة وكركميش وأرواد وقبرص شملها الاجتياح. أقام شعوب البحر معسكراً وحيداً في بلاد الأمورو ووصلوا إلى مصر تسبقهم نيران الحرائق. دعائمهم الرئيسة كانت أقوام الفلسطي والزيكال والساغلات والدانيين والأواشاشا؛ كل هذه الأقوام كانت متحدة وشبكت أيديها على البلدان التي هي أبعد. قلوبهم كانت واثقة وعامرة بالطموح"[70].

نـــزوح متواصـــل إلى آمـــورو في ســـورية الغربية، وهي عقـــدة المواصـــلات بـــين آســـيا الصـــغرى ووادي الرافدين ومصر.

مملكة الحثيين انهارت نهائياً، قبرص احتلت، كركيمش وأرواد استعملتها شعوب البحر كقاعدتين للهجوم على الساحل السوري كله، والمدن الفينيقية بصورة خاصة، وكان نصيبها النهب والخراب. أوغاريت القاعدة البحرية الكبرى في الشمال دمرت من أساسها. ثم تابعت هذه الأقوام المدمرة رحلتها نحو الجنوب مرة ثانية فحاصرت أساطيلها ثغور النيل، وضغط جيشها على الحدود المصرية. وللمرة الثانية تغلّب الجيش المصري على الغزاة، فصدهم ودفعهم إلى الوراء مكبَّدين خسائر فادحة. ولكن الخطر

[70] ج. بريستد، "تسجيلات قديمة"، المجلد الرابع.

كان يتجدد بعد كل هزيمة يتكبدها المهاجمون. فبينما كانت تعد فرق هجوم جديدة في قاعدة آمورو كانت تصل نجدات جديدة إلى ليبيا لتقوم بزحف من الغرب إلى مصر.

وحالما بدأ تسربهم من الحدود الغربية واجههم رعمسيس الثالث وسحقهم في مجزرة رهيبة جديدة. ثم ارتد إلى الشرق فزحف بجيشه نحو الشمال واحتل الساحل الفينيقي، حيث قضى على آخر جيوب لشعوب البحر في معركة دارت رحاها 1191 ق.م. أمام مرفأ سوري لم يحدد موقعه.

ولكن الملك المصري أضطر للابتعاد عن الميدان السوري والانكفاء إلى مصر ليواجه تجمعاً جديداً لليبيين الذين قاموا بهجوم مفاجئ على مصر 1188 ق.م.

أثر موجة شعوب البحر

بعد تبدد موجة شعوب البحر في أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، خلا الميدان السوري من جميع القوى الأجنبية. لم يبقَ من الدولة الحثية إلا جيوب قليلة أهمها في كركيمش. ومن بين الأقوام السورية التي خلا لها الميدان الآشوريون والآراميون والفينيقيون (الكنعانيون). كان الآشوريون وحدهم مستعدين ومهيئين للاندفاع السريع في سبيل التوسع لتوحيد سورية مجدداً؛ فموجة شعوب البحر لم تطلهم لأنها شملت الشاطئ، وهم بعيدون في الداخل.

المدن الفينيقية تناولتها الموجة بأقسى ما يمكن: مدنها الرئيسة نهبت وأحرقت، وسكانها شردوا نحو الداخل. والآراميون لم يكونوا دولاً منظمة مسلحة تسليحاً حديثاً، ولم تكن لهم اختبارات آشور وتجاربها القاسية. آشور وحدها كانت مؤهلة أن تملأ الفراغ الذي أحدثه انهيار الدول الحثية في آسيا الصغرى، وانفلات مناطق نفوذها السورية من قبضتها، والفراغ الذي أحدثه انكفاء المصريين عن الشاطئ السوري الممتد من جبيل حتى حدود مصر.

قد تكون هذه المرحلة من تاريخ سورية الطبيعية 1200- 539 ق.م من أدق المراحل السورية وأصعبها وأعظمها. فقوة آشور العسكرية التي كانت الأولى في العالم خلال ستة قرون، وقوة فينيقا البحرية التي جعلت من المتوسط بحيرة كنعانية في الوقت نفسه، ونشاط الآراميين الشعبي الذي ملأ الفراغ السوري في كل مكان، كل هذه الإمكانيات العبقرية الجبارة كانت مؤهلة أن تحقق ما حققته الدولة الأموية في القرن السابع بعد الميلاد..

آشور، بجيشها، كانت الصاعقة المنقضة، وصور، بتوسعها البحري وبتأسيسها قرطاجة بعد مستعمراتها العديدة، فرضت سياستها واقتصادها وحضارتها على شرق المتوسط وغربه، والآراميون استقروا في سورية الوسطى الشمالية، وكانوا لحمة المجتمع السوري وسداه بلغتهم، وأبجديتهم الفينيقية، وثقافتهم المكونة من تراث وادي الرافدين وتراث الشاطئ؛ كانوا الأساس الشعبي الجديد المتين الذي لم يتوفر إيجاده حتى لدولة سرغون ودولة حمورابي.

الدور الآرامي

"نفهم من نص آشوري أن ملك آشور أوريك -دان ايلو حوالي 1325- 1311 ق.م. حارب وانتصر على فرقة الاخلامو والسوتو (نقوش ابنه الملك حددنيراري). وبما أن منطقة نفوذ الآشوريين، في ذلك الزمان، كانت منحسرة باتجاه منطقة دجلة العليا فقد نجح الآراميون الاخلامو، كما يبدو، في إيصال اختراقهم إلى هناك، بعيداً جداً وراء الفرات"[71].

ومن المعروف أن الآراميين كانوا قد ثبتوا أقدامهم في سورية منذ حوالي 1500 ق.م. ثم لم يلبثوا أن انتشروا في سورية الشمالية غربي نصف الدائرة التي يرسمها الفرات هناك، حيث سيطروا على عدد من المدن مثل حلب التي عرفت فيما بعد باسم بيت آغومشي بالقرب من بيت عديني، فيما بقيت كركميش خاضعة للحثيين حتى مجيء سرغون الثاني الآشوري الكبير.

وأمعن الآراميون بالتوغل في وادي قراسو فأسسوا على سفوح الأمانوس إمارة سمعال أو شمأل، وكانت عاصمتها زنجرلي. ثم انتشروا منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، في وادي العاصي الأعلى ووادي الليطاني وجنوبي سورية كله حيث اصطدموا بالعبرانيين الذين كانوا قد غزوا فلسطين عقب طردهم من مصر.

ومن الإمارات الآرامية المعروفة: آرام حاماة، وآرام دمشق، وآرام معكة في الجولان، وآرام جشور بين اليرموك ودمشق.

---

(71) أ. دوبون - سومير (الآراميون) ص: 16- 17.

وقد كان على شاول ملك اليهود الأول أن يقاتل ليس فقط الفلسطينيين بل أن يحارب الموآبيين، والعموريين، والآدموميين، وأيضاً ملك صوبا الآرامي حدد عازر.

ومن المعروف أن آراميي وادي الرافدين أنجدوا حدد عازر ملك صوبا ضد اليهود، وإن هذا الملك ذهب إلى وادي الرافدين ليستعيد سلطته عليه، مع أن آراميي هذا الوادي كانوا حلفاءه لا أعداءه، إذن فلا بد أنه كان يرمي، من تحركه، إلى تأليف اتحاد فدرالي للدويلات الأربع يمتد من الفرات إلى الأردن، وذلك لصد الخطر الاسرائيلي.

ولا يستطيع المتأمل في هذه الوقائع التاريخية إلا أن ينظر إلى حد عازر بكثير من الإكبار والإعجاب، وهو الذي أدرك، منذ حوالي ثلاثين قرناً، ضرورة توحيد القوى السورية.

كما لابد لنا من أن نلحظ، من خلال تعدد الأقوام الرافضة لوجود العبرانيين على أرض الوطن السوري، أن هناك مبرراً قوياً لهذا الرفض، يكمن في عدم صلاحية هؤلاء للتفاعل مع أي شعب، ربما بفعل معتقداتهم الدينية التي تقوم على تربيتهم على الحقد، والغدر، والعدوان، وتبرير كل المحرمات بحق غيرهم.

فصراع السوريين معهم بدأ منذ بدء تواجدهم على الأرض السورية وسيظل صراعاً أبدياً فلا ينتهي إلا برحيلهم عنها أو بزوالهم من الوجود. وهكذا نرى أنه قد كان للآراميين دورهم الهام في محاولة إقامة اتحاد سوري، ولعل هذا الدور، أو ذلك

المسعى التوحيدي تحت زعامة هذا الملك أو ذاك، هو الذي أوجد المبرر لصد محاولة الآشوريين لإخضاعهم، وتوحيد سورية تحت زعامة ملوكهم.

لقد جمّد الآراميون التوسع الآشوري في غربي سورية نحو نصف قرن، واستطاعوا فرض نفوذهم في الجنوب فلم يجابهوا من سورية الجنوبية إلا مقاومة مستضعفة إذ إن سكان تلك المنطقة كانوا خليطاً من العموريين والكنعانيين تتآكله الفوضى. وخلافاً لهذا الوضع كانت جبيل وصيدا وصور من مدن الساحل الفينيقي أكثر تنظيماً، وأمنع حصوناً، لذلك استطاعت أن توقف التوسع الآرامي فلم يتمكنوا من الوصول إلى البحر[72].

للفينيقيين دور مميز

بأعجوبة مدهشة خرج الفينيقيون من كوارثهم التي امتدت من القرن السادس عشر إلى أواسط القرن الثاني عشر ق.م (انهزام شعوب البحر) فتمكنوا من إعادة بناء مدنهم، وترميم مرافئهم، وبناء أساطيلهم، واستئناف حياتهم الاجتماعية والتجارية والفكرية، ومن الانطلاق مجدداً في عباب البحر نحو الآفاق البعيدة، واكتشاف المحيط الأطلسي في ذلك الوقت المبكر جداً، ولقد تم كل ذلك خلال قرن ونصف قرن، أو قرنين على الأكثر 1150 -950 ق.م.

[72] أ. دوبون - سومر: الآراميون، ص: 28.

لاشك في أن الأبجدية الفينيقية بلغت الإتقان والكمال في أوائل هذا العصر. وهذا الاختراع الفذ جعل الكتابة أداة شعبية في متناول كل إنسان، وقبله كانت الكتابة المسمارية من اختصاص الكتبة المحترفين وحسب.

وإذا كان الفينيقيون قد نقلوا أبجديتهم إلى شعوب حوض المتوسط بدءاً من الجزر اليونانية واليونان، قبل أن ينقلوها إلى داخل بلادهم، فإن الآراميين الذين اقتبسوها حالاً قد وزعوها في جميع مناطقهم السورية؛ فكانت لهم السلاح الأفضل لتسيطر لغتهم وثقافتهم على جميع المدن السورية.

التوسع في غربي المتوسط

لقد تميز الفينيقيون دوماً بنوع من الطموح الذي تشوبه نزعة أنانية تجعلهم يمارسون نشاطهم في معزل عن تفكير اتحادي، مع أن مدنهم المنفصلة في إداراتها المحلية كانت تلتف حول زعامة أقوى هذه المدن، تلك الزعامة التي كانت تنتقل من مدينة إلى أخرى حسب تبدل القوى. فبعد زعامة أوغاريت أطلت صيدون على المسرح، وأخذت تبني محطاتها التجارية في شمالي أفريقيا، ثم تحولت تلك المحطات إلى مدن.

بعد صيدون جاء دور صور التي أصبحت في غربي سورية الساحلي كما كانت بابل الشرق، ولم تستقر صور بضعفها العسكري إلا عندما أطلت جيوش آشور مرة بعد مرة تريد البحر حداً لتوسعها الغربي. حينذاك بدأ الصوريون، من طبقة الأشراف

والأثرياء ذوي المشاريع البحرية والصناعية الكبرى، بالتفكير ببناء مدينة جديدة في شمالي أفريقيا تحتضن ثروتهم وتنميها في منطقة حرة، بعيدة عن أخطار الحروب.

لم تكنِ عند الفينيقيين إذاً فكرة وجدانية عن الوطن كله، بل كانوا يهتمون بالأطراف الشاطئية وحسب. وقد كلفهم ذلك النسيان لضرورة التلاحم مع محيطهم القومي، الوقوع، في أغلب الأحيان، فريسة للتسلط الخارجي من مصر. وما كان أمامهم سوى التسابق إلى استرضائها، والتنافس فيما بينهم على الاستقواء بها ضد جيرانهم عندما تتطلب ذلك مصالحهم الخصوصية.

ترى هل يصير ذلك التقوقع درساً وعبرة للضالعين فيه اليوم؟!

فمنذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد خلا ميدان المتوسط البحري والميدان الشرقي نحو بابل وسوزا والبر الإيراني-الهندي لنشاط الفينيقيين وعبقريتهم الاقتصادية والحضارية.

في أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وبعد أن كانوا قد تحرروا من الحماية المصرية، عادوا إلى التقرب من ملك مصر لسيطرته على البحر الحمر، فدفعوا له الرسوم التي تضمن لهم حرية الانتقال في هذا البحر "ولما كانت الحركة التجارية البرية قد خفت وتقلصت على أثر عودة النظام الإقطاعي الخانق إلى دول الهلال الخصيب، راح الفينيقيون يبحثون غرباً عن منافذ جديدة لنشاطهم"[73].

[73] جاك بيران، "حضارات قديمة" ص: 88.

بسطت صيدون وصور سلطتهما على قبرص، وصقلية، وكريت، واستولتا على مالطة، وأسستا مراكز تجارية في صقلية وميليت، ثم توغلتا في الجانب الغربي من المتوسط، وحوالي العام 1000 ق.م بلغتا مضيق جبل طارق، وأطلقتا عليه آنذاك اسم مضيق "عمودي ملقرت" واجتازتاه، فأنشأتا مدينة قادش، واتصلتا منها بمملكة طرطوس في شبه جزيرة إسبانيا التي كانت تشمل "الوادي الكبير". وكان سكان هذه المملكة مسالمين، وعلى جانب كبير من النشاط، فتعاونوا مع الفينيقيين لاستغلال مناجم الفضة والنحاس والرصاص الكثير في بلادهم، فانفتح المجال أمام الصوريين والصيدونيين لدفع انتشارهم التجاري إلى إسبانيا كلها، وفرنسا، ثم إلى إنكلترا للحصول على القصدير، وإلى الاسكندنافية الغنية بالعنبر. وتابع الصوريون تقدمهم فأسسوا مركز ليكسوس على الشاطئ المغربي الإفريقي حيث اتصلوا بالسكان الإفريقيين، فانفتح في الغرب عالم وسيع عظيم الإمكانيات، فياض الثروات، في أقل من قرن واحد، فأمست المدن الفينيقية أسواق فضة ونحاس وقصدير في حوض المتوسط كله، تصدّر الأدوات المصنوعة إلى مصر، وتستورد الاباذير من الهند.

وقد أدى ثراء هذه المدن العريض في القرن العاشر ق.م إلى تحركات أدت في صور إلى إحلال سلطة قضاة، (مدة ولايتهم سنة واحدة)، محل الملك. فاتخذت جمهورية صور طابع إمبراطورية بحرية حقيقية. وعام 814 ق.م نشأت مستعمرة قرطاجة التي

سيطرت على الملاحة في الجانب الغربي من المتوسط في أقل من قرن واحد[74]. وبقيت كل المراكز التجارية التي أقيمت على الشواطئ الإفريقية، وفي صقلية، وسردينا، وإسبانيا، وثيقة العلاقة بالعاصمة صور، ترسل إليها العشر المأخوذ من مختلف المعاملات التجارية، فإذا بصور قوة كبيرة مرهوبة الجانب على الصعيدين البحري والمالي.

واتجه الفينيقيون تجارياً نحو الداخل البري أيضاً، فغزت تجارتهم وادي الرافدين، وتوغلت في إيران والهند، كما يظهر من خريطة خطوطهم التجارية.

ساحة صراع

تعددت أطراف الصراع في عدة أنحاء من الوطن السوري الذي بات يعاني فيه الشعب من نتائج الغارات، وحملات الاجتياح التي لا تكاد تهدأ حتى تتجدد.

أما **بابل**، في غمرة النشاط الآرامي ومحاولات التوسع الآشوري، فقد حافظت هياكلها على وجودها إذ احترمها الكاشيون الغزاة الذين سيطروا عليها، فأصبحت مركز جذب، وتحولت إلى إمارات إقطاعية، بفعل تطور رجعي، فعاد النظام الملكي المستبد، وما إليه من اقتصاد مطلق، وبناء اجتماعي رازح في أصفاد العبودية، وبذلت المدينة جهداً كبيراً لتحافظ على

(74) راجع الجزء الثاني من "تاريخ سورية" لأسد الأشقر "الحضارة الكنعانية في حوض المتوسط".

نشاطها الاقتصادي الذي تغذيه الموانئ الفينيقية على الساحل السوري، والقوافل الآتية من شواطئ البحر المتوسط، فبقيت سوقاً يلتقي فيها التجار الغربيون بالذين تحملهم القوافل من بلاد العرب والهند وأواسط آسيا.

وأما **آشور**، بعد أن وصلت جيوشها إلى ارواد على الساحل السوري في عهد تفلات بلاصر الأول، فلم تهاجم المدن الفينيقية المنيعة، واكتفت بأخذ الجزية وعادت.

وأما **الآراميون** فقد كانت هذه الحقبة من الانكفاء الآشوري، عصر زخمهم واستماتتهم لتطويق العرين الآشوري، ولصد التوسع العبراني في فلسطين.

في الثلث الأخير من القرن العاشر ق.م كانوا في أوج قوتهم وانتشارهم، تمتد إماراتهم من الخليج العربي، حيث تتمركز إمارات من قبيلة كلدة الآرامية، إلى إمارة شمأل في شمالي خليج إسكندرون، إلى حماه، وقادش، وصوبا، ودمشق، حيث يصارع الآراميون مملكة إسرائيل، ويحدون من توسعها وتعدياتها على العموريين والكنعانيين. وكان الآراميون، مع عدم وجود قيادة موحدة لهم، متفاهمين على أهدافهم يعملون باستقتال في سبيلها، من الخليج العربي حتى فلسطين في تناغم موحد بالرغم من التنافس السائد بين أمرائهم وملوكهم. وقد زادهم قوة ومنعة مركز التجمع في تدمر يجذب القبائل الآرامية من البادية إلى ذلك الموقع الوسط في سورية الطبيعية، فتنطلق منه العناصر الجديدة لتشكل

نجدات حربية متواصلة، وبذلك استطاعوا أن يتركوا آشور في ما يشبه اليأس. وفي سورية الجنوبية قاتلوا مملكة إسرائيل ردحاً من الزمن، ثم فرضوا أنفسهم على المنطقة كلها.

لكن ساعة الانقضاض الآشوري كانت تقترب، تمهّد لها هجمات متكررة كل عام، فيخضع لسلطانهم أمراء كثيرون، ويدفع آخرون الجزية.

في تلك الأثناء كانت مملكة دمشق تنمي طاقاتها القتالية، مع أنها لم تكن مهددة مباشرة، ذلك أنها وجدت الفرصة سانحة لضرب العدو الدائم، ذلك العبراني المتربص في فلسطين، ففي أوائل القرن التاسع ق.م. انقسم العبرانيون إلى مملكتين متحاربتين: يهوذا في الجنوب، وإسرائيل في الشمال. فاغتنم ابن حدد ملك دمشق هذه الفرصة واجتاح مملكة إسرائيل.

وبينما كان الصراع ناشباً بين دمشق ومملكة إسرائيل أخذت الهجمات الآشورية تتتالى على ممالك الآراميين فتأخذ الغنائم ثم تعود. مع ذلك استمر الصراع بين دمشق وإسرائيل في عهد حزائيل الذي خلف ابن حدد، وقد تميز هذا بالحزم والصلابة[75].

لكن الخطر الآشوري تفاقم واشتد مما استدعى قيام تحالف آرامي بين جميع الممالك في لبنان والبقاع، فضلاً عن حماه ودمشق، وهما أكبر هذه الممالك. إلا أن ذلك التحالف جاء

[75] راجع دوبون – سومير "الآراميون" ص: 39.

متأخراً، وغير قادر على إيقاف الزحف الذي باشره الملك الآشوري تغلات بلاصر الثالث المشهور بقوته وحزمه على عرباد قاعدة الصمود الآرامي التي صمدت ثلاث سنوات حتى إذا سقطت عام 740 ق.م هرع ملوك دمشق، وصوبا، وكركميش، وجرجومة، إلى عرباد ليقدموا خضوعهم، ويدفعوا الجزية. لكن مقاومة آرامية جديدة نشأت حول مملكة شمأل بقيادة ملكها عزيريو فلم يمهله تغلات بلاصر طويلاً، بل زحف عام 736 ق.م إلى مملكة عمقي، فأخضعها، ثم سار لمواجهة عزيريو وغيره من الثائرين، فاستولى على مدن فينيقية عديدة على الساحل الشمالي، وعلى حماه، ثم اجتاح كركميش، وقهر عزيربو فقتله، وأحل محله بنامو الثاني. وفي الجنوب لم يكن تغلات بلاصر مرتاحاً لصدق خضوع دمشق والسامرة، مما جعله يحزم أمره فيضرب هذين البلدين ضربة قاسية. وفي العام 734 ق.م توجه إلى فلسطين، فأخضع في طريقه مدناً فينيقية عديدة على الساحل، منها جبيل، وسيميرا وعرقا، ثم هاجم غزة فدخلها ونهبها.

عندئذ أرسل آحاز ملك يهوذا، إلى تغلات بلاصر، كل ما يملك من ذهب وفضة مع رسالة قال له فيها "أنا عبدك وابنك، فاصعد وخلّصني من يد ملك آرام، ومن يد ملك إسرائيل القائمين علي". فبادر الملك الآشوري إلى اغتنام هذه الفرصة، فاجتاح إسرائيل، وسبى سكانها فهجّرهم إلى آشور. ولما ثار أهل السامرة، أغرق ثورتهم بالدم والنار وقتل ملكهم بكاح، وأحل محله هوشع

صنيعة له، وأمست دمشق وحيدة، فهاجمها بكل قوته طوال سنتين بلا توقف. ومع أنها أنزلت به هزائم موجعة إلا أنه تغلب عليها في النهاية فانتقم بلا رحمة، ثم انطلق عاصفاً كالإعصار الأهوج، فأخضع العرب وملكتهم شمشي، وهاجم إسرائيل من جديد ليقمع ثورة على هوشع، ووطّن سلطانه في عسقلان التي تمردت.

سقطت آرام دمشق.. آرام الدويلات.. آرام الممالك والإمارات، والمدن والإقطاعات. لكن آرام الشعب.. آرام الثقافة لم تسقط. سقطت آرام دمشق.. ولكن مركزية آشور، على قساوتها، كان لها الفضل في أنها أطلقت لغة الآراميين لتوحد لغة سورية عامة، من سفوح زغروس إلى المتوسط، ومن سفوح طوروس إلى تيماء في قلب الصحراء العربية.

وفي خط مواز انطلق الكنعانيون لتأسيس قرطاجة، وإقامة إمبراطورية المتوسط الكنعانية، لتكون مكملة للسيادة الآشورية السورية. وهكذا نرى أن حركات التصادم بين جماعات الوطن الواحد يمكن أن تشكل أيضاً نوعاً من التفاعل السلبي الذي، مع ما يحمله من تخريب مادي، يؤدي، بذات الوقت، دوراً يخدم مسيرة التطور والتغيير والوحدة، ويتحول إلى تفاعل إيجابي مثمر.

مظاهر التطور ونضج التفاعل الفكري

لجأ الآراميون خلال تمددهم الشعبي في مناطق الهلال الخصيب إلى استعارة بعض الألفاظ الفينيقية والآشورية والبابلية، ومع أن

تلك الاستعارات كانت، في البداية، حاجةً إلى التأقلم، فإنها أيضاً كانت دليلاً على حيوية الآرامية، فالحيوية تتجلى أكثر ما تتجلى بالانفتاح والتفاعل والأخذ والعطاء.

ومما يسترعي الانتباه أن النصوص المنقوشة على تمثال الإله حدد، وتمثال ملك شمأل وبنامو الثاني، وهي ترقى إلى القرن الثامن ق. م، تثبت أن الآرامية قد تطورت من حيث اللهجة، وتركزت على قواعد صرفية ونحوية تثير الإعجاب.

واللغة الآرامية بحد ذاتها، وهي التعبير الأبلغ عن التراث الآرامي الباقي، ما لبثت أن اتخذت طابَعاً أدبياً يترع إلى الإبداع اللفظي. وهذا ما نلمسه بوضوح على الأخص في لوحة ملقارت المكتشفة قرب حلب[76].

فبنتيجة الاحتكاك الدائم المحكوم بواقع الانتشار الواسع، وبسبب تسرب بعض الأقوام الغريبة، ولاسيما من الشمال والشرق، صار التداول بلهجات آرامية مختلفة، كما هو شأن العربية اليوم، والآرامية تقاربها تقارباً حميماً.

ولا ريب أن دمشق أنتجت أدباً غنياً بالخلق، في الأناشيد والطقوس الدينية، والملاحم الوطنية، والأساطير القومية. لكن آثار الدمشقيين وغيرهم من الآراميين ضاعت بين الأنقاض الدارسة، وتحت أقدام الغزاة والفاتحين من القبائل البربرية،

[76] راجع دوبون - سومير "الآراميون" ص 82.

باستثناء بعض النقوش القليلة والناقصة التي عثر عليها، بينما آثار العبرانيين، المقتبس أكثرها من التراث السوري وخاصة من بابل والمنقول مشوّهاً، قد حفظت في التوراة على أنها "كتاب مقدس".

لو لم تكن الآرامية قد بلغت درجة عالية من النضج والمتانة وبلاغة التعبير، لما استطاعت فرض نفسها، بعد زوال الدول الآرامية، على الآشوريين أنفسهم الذين اعتمدوها بعد انتصارهم السياسي والعسكري متخلين، من اجلها، عن لغتهم الأساسية. ففي القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، اضطر الآشوريون إلى تعلم الآرامية، واعتمدوها رسمياً لغة الدولة الدبلوماسية، وانتدبوا لإتقانها كتبة آراميين في مختلف ولاياتهم ودوائرهم الحكومية، وهذا ما تثبته الآثار المكتشفة في تل برسيب التي ترقى إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، ويبدو فيها كاتبان جنباً إلى جنب: أحدهما آشوري ينقش على لوحة صلصالية، والآخر آرامي يكتب على ورق البردي.

وكشفت الحفريات في آشور ونينوى وغيرهما عن كتابات عديدة بالآرامية ترقى إلى القرن السابع ق.م[77]، مما يثبت بقاء هذه اللغة واعتمادها في مختلف المناطق السورية، وعلى الأخص في وادي الرافدين.

[77] راجع دوبون – سومر "الآراميون" ص 86.

ولما استولت آشور على إسرائيل، وزالت الحدود السياسية بينها وبين المناطق الآرامية في أواخر القرن الثامن ق.م.، تدفقت اللغة الآرامية على فلسطين حتى شملتها ونافست فيها العبرية نفسها.

وكان الآراميون قد برزوا، في بدء هذا العصر الأبجدي الجديد، كقوة شعبية جديدة منتشرة في جميع المناطق السورية إلا الشاطئ، ونافسوا الآشوريين على تراث سابقيهم الأكاديين والبابليين. وكانت تدعم الآراميين في صراعهم عوامل ثلاثة:

1- كونهم يتكلمون لغة شقيقة للبابلية.

2- كونهم قد اقتبسوا، قبل غيرهم، الأبجدية الفينيقية، بينما بقيت لغة آشور جامدة في كتابتها المسمارية الصعبة التي لا يتقنها إلا الكتبة الاختصاصيون.

3- كونهم منتشرين في مناطق كثيرة، بينما الآشوريون كانوا ما يزالون مطوقين في منطقة آشور، وعندما بدأوا بالتوسع، وبالسيطرة على الآراميين، ونقل الآلاف منهم إلى آشور وبابل، كان يزداد انتشار الآرامية مع ازدياد الحركة التجارية، ومع الاختلاط بالآشوريين والبابليين.

هذه الحالة المركبة من تفوق الآشوريين العسكري، وضعفهم اللغوي والثقافي، ومن ضعف الآراميين السياسي وقوتهم اللغوية والثقافية، قد أدت، في النهاية، إلى انتصار آشور السياسي والعسكري، وإلى انتصار الآراميين اللغوي والثقافي.

عظمة آشور ودواعي انهيارها الأصلية

إن الحقبة الممتدة من عهد سرغون الثاني 722 - 705 ق.م. إلى عهد آشور بانيبعل 668 - 626 ق.م كانت أمجد عهود آشور وأعظمها. وما إن بسط سرغون الثاني سلطانه على آسية الغربية حتى شرع ينظم دولته سياسياً واقتصادياً، وتخلى عن أسلوب التخريب والنهب والحريق الذي شكل تقليداً مهر الحملات الآشورية المتلاحقة بطابعه المثير، ولكنه اعتمد، بديلاً عنه، أسلوب الضغط العسكري والإرهاب. ومن أهم أعمال شارون أنه:

1- وطّن جاليات آشورية في المناطق العاصية، كما حدث في كركميش التي أفرغت من سكانها.

2- عين حكاماً آشوريين في وادي الرافدين وكبادوكيا.

3- أبقى الملوك القابلين بالتبعية، كما في قبرص.

4- جمع الساحل كله، باستثناء صور التي حافظت على استقلالها المديني، في ولاية واحدة تحت حكم ملك صيدون.

أما بابل فقد عوملت معاملة خاصة بالنظر إلى هيبتها وتراثها. وحرص سرغون الثاني شخصياً على أن يكون ملكها، وجعل من نينوى عاصمة له، فشيد القصر على الطراز البابلي، وعهد بالأعمال الإدارية إلى كتبة بابليين، وأسس مكتبة وطنية جمع فيها كل المؤلفات البابلية، وأنشأ الحدائق العامة، وحدائق الحيوانات، وأعاد العمل بالتقويم البابلي، والمكاييل والأوزان، والعلوم والقواعد الحقوقية.

وبعد أن تأمنت سيطرة آشور، بدأت عملية استثمار سورية الغربية فحفرت فيها الأقنية، وبنيت خزانات المياه لإنعاش الزراعة، وأنشئت الأسواق لترويج التجارة الداخلية، وعززت الملاحة في الخليج العربي بأسطول بناه الفينيقيون والقبارصة. وفي مختلف أنحاء الدولة بوشر بتنفيذ مشاريع كبيرة. وبقدر ما كانت هذه السياسة الإنمائية تتحقق كانت إقليميات شعوب البيئة الطبيعية تتقلص وتزول.

من جهة أخرى، ظل الملك في آشور عاهلاً إقطاعياً مضطراً لأن يشرك في سلطانه كبار الملاكين المهيمنين على قيادة الجيش. إلا أنه في الولايات كان ذا سلطة مطلقة أحرزها بقوة السلاح. وكان الملك مضطراً إلى ممارسة سياسة استغلال يفيد منها الإقطاعيون الآشوريون الذين لا يرون في الإمبراطورية سوى أداة كسب ليظل قابضاً على ناصية الجيش.

وهكذا استبدلت أساليب الكسب عن طريق النهب والسلب بالأساليب الشرعية في الاستثمار، وتحولت مشاريع المناطق إلى وسائل استغلال لحساب الإقطاعية الآشورية؛ فكانت الإمبراطورية إطاراً سياسياً وعسكرياً لمشروع استغلالي مترامي الأطراف.

لهذه الأسباب، ولأن آشور اعتمدت على قوتها العسكرية فحسب لإنشاء دولتها، اصطدمت سياسة سرغون الثاني الذي لم يخرج على العرف الإقطاعي، بعقبتين اثنتين:

الأولى معنوية، وهي أن الملك لا يستطيع الاعتماد على ولاء الأقوام الخاضعة للإرهاب، و**الثانية** مادية وهي عدم توفر التضامن

القائم على المصالح المشتركة، مما يفترض في العادة أن تساهم في توفره الوحدة الاقتصادية.

في سنة 671 ق.م حققت آشور أوسع إمبراطورية أنشئت حتى ذلك الحين في العالم القديم، وأتمّ دولة سورية جمعت سورية الطبيعية كلها من الخليج العربي وجبال زغروس الشرقية، إلى جبال طوروس الشمالية (الأرمنية)، والشمالية الغربية المشرفة شمالاً وغرباً على آسيا الصغرى، وعلى كيليكيا، وخليج إسكندرون، والشاطئ السوري كله، وقبرص، حتى قوس الصحراء، شاملة البادية السورية في خط مستقيم من خليج العقبة حتى جنوبي أور على الخليج العربي. وقد تعدت سلطة آشور حدود سورية الطبيعية من جهة مصر إذ ضمت القسم الشمالي منها حتى حدود ليبيا غرباً وحتى نحو مئتي كيلومتر جنوبي طيبة وجنوبي القصير على شواطئ البحر الأحمر، مما جعل طريق الهند تحت السيطرة الآشورية.

انهيار آشور

كانت مصر هي البادئة بالثورة على الحكم الآشوري، بعد عقد حلف سري مع ملك ليديا التي كانت خاضعة بدورها للآشوريين.

وكانت آشور عاجزة أن ترد على الثورة المصرية، إذ إن خلافات السلالات المالكة كانت تشل نشاطها الحربي، وقد استغلت هذه الخلافات جميع الولايات الخاضعة لآشور من عيلام

إلى سيناء، وذلك بعد وفاة سرغون الثاني، وتألبت جميع العوامل الداخلية والخارجية لتهز الإمبراطورية في جميع أرجائها.

ولكي يكبح آشور بانيبعل جماحها دمر بابل تدميراً بشعاً 648 ق.م. ومحق معالم سوزا 640 ق.م.، ولكنه بذلك كان يدمر إمبراطوريته.

فوق البلايا والهزات الداخلية التي أصيبت بها سورية والإمبراطورية الآشورية ظهرت في آسية الصغرى موجة بربرية جديدة، فاندفعت مثل اندفاع شعوب البحر نحو الجنوب تدمّر وتنهب ماحقة أمامها معالم العمران في سورية، ومُنـــزلةً الخراب بالمدن المزدهرة، ولم تتوقف إلا على أبواب مصر حيث اشترى فرعون مصر حرية بلاده بالذهب الكثير.. تلك هي موجة البرابرة السيتيين.

بعد هذه الضربات المتواصلة أمست آشور كنسر مهيض الجناح، ولكنه مع ذلك مخيف، مرهوب الجانب.

الدولة البابلية الجديدة

ما إن بدأ هيكل الإمبراطورية الآشورية يتصدع، حتى هب القائد البابلي نبوبولاصر، يعلن العصيان والثورة، ويقيم نفسه ملكاً على بابل عاصمة أجداده، وما إن استتب له الأمر حتى أخذ يوسع دائرة مملكته. وبنفس الوقت اغتنمت مصر انشغال بابل وآشور في حرب داخلية بعيدة، فعادت إلى سياستها التوسعية التقليدية،

وهاجمت سورية الغربية، التي لم تنهض بعدُ من بين أنقاض ما دمره البرابرة السيتيون، فبسطت سيطرتها على المدن الفينيقية المخربة، و لم توقف هجومها إلا على شواطئ الفرات.

وليتمكن ملك مصر بسامتيك من المحافظة على المناطق السورية التي استولى عليها حديثاً، كان عليه أن يمنع بابل من الحلول محل آشور، وهرع لنجدة نينوى لتبقى ثقلاً موازناً للقوة البابلية المتصاعدة [78].

رد نبوبولاصر على الحلف المصري الآشوري بمحالفة سيكزار ملك الميديين الذي كان، آنذاك، يبني دولة إقطاعية عسكرية في المرتفعات الإيرانية.

عام 612 ق.م سقطت نينوى أمام زحف القوات البابلية والميدية المتحالفة ودكت معالمها، ولاحقت القوات الزاحفة فلول الجيش الآشوري فعمد بسامتيك إلى إنجادها ليقطع طريق سورية الغربية على بابل، إلا أنه لم يتمكن من تغيير مصيرها المحتوم ففي العام 609 ق.م كانت قد سحقت تماماً.

وعندما سقطت نينوى 612 ق.م، وانتقلت السيادة إلى بابل، كانت هذه الحقبة فجراً جديداً لعصر الثقافة الآرامية الذهبي، فالقبائل الآرامية والكلدانية كانت مساعدة لانتصار بابل، وقد كانت مستعدة، حتى أكثر من المنتصر نفسه، لأن تفيد من زوال

[78] راجع بيران "الخطوط الكبيرة في التاريخ العالمي" ج: 1 ص: 111.

آشور، بعد أن انصهرت عناصرها، في بابل وما حولها، في بوتقة الألم والحقد التي جمعت كل العناصر الحاقدة على آشور.

ولقد اعتُبر نبوبولاصر زعيم حركة شعبية ثائرة على الأرستقراطية العسكرية الآشورية.

وهنا لا بد من التمييز بين الأرستقراطية الآشورية التي انهارت، والأرستقراطية البابلية الجديدة التي نهضت، والأرستقراطية الآرامية التي تتزعم القبائل الآرامية ودويلاتها المتعددة:

أرستقراطية آشور: وهي تلك التي يقول ملكها "أنا الدولة"، وهذا يعني أن سلطانها من فوق، من السماء، أعطاه مردوك أو حدد. أما الشعب فهو ملك له.

الأرستقراطية البابلية الجديدة: مجسدة في شخصية نبوبولاصر على الأقل، فكانت قد تلقحت بروح شعبية جديدة، وأصبحت من نوع جديد مخضرم مزيج من الأشراف والشعب.

أرستقراطية الآراميين: في كل مكان، فإنها كانت من النوع الذي يستمد نفوذه من البشر لا من الآلهة، والعامل الفعال الذي استمر في جعل الآراميين عنصراً رئيساً في هذا الإمبراطورية البابلية الجديدة هو لغتهم؛ فالدولة البابلية الجديدة اعتمدت استعمال الآرامية كلغة رسمية للدولة.

الوحدة السورية من جديد:

ظنّت مصر، وعلى رأسها الفرعون نخاو، ان انشغال الدولة البابلية الجديدة بتنظيم نفسها هو فرصة سانحة لتوطيد نفوذها في

سورية الغربية، فتقدم جيشها حتى وصل كركميش على مقربة من الجيش البابلي الذي كان بقيادة ولي العهد نبوخذ نصر 605 ق.م. وهناك كانت المعركة التي اندحر فيها الجيش المصري، وأجلي عن سورية الغربية جميعها. ولما عاد خفرع خليفة نخاو، ودخل فلسطين، أسرع نبوخذ نصر وواجه المصريين في فلسطين وهزمهم شر هزيمة. وبتلك المعركة انتهى كل أمل للفراعنة بالدخول مجدداً إلى أرض سورية[79].

وفي جنوبي سورية الغربية كانت مملكة يهوذا ما تنفك تتآمر مع فراعنة مصر[80]. وعندما علم نبوخذ نصر بما يخامر ملك يهوذا أرسل جيشاً واحتل أورشليم في 597 ق.م.، ثم كرر ذلك عندما علم أن ملك يهوذا الجديد يهوياقين يتابع سياسة أبيه بالميل إلى فرعون مصر. وعندئذ نفى الملكَ وحاشيته وجنوده وعدداً من رعاياه إلى بابل إلا أنه عاملهم هناك معاملة جيدة. ولم يقصد من نقلهم إلا أن يجعلهم ينصهرون مع الشعب السوري في بوتقة واحدة، محاولاً بذلك وضع حد للدويلات الإقليمية. وقد عين نبوخذ نصر صدقيا ملكاً على يهوذا، على أن يكون مخلصاً في خضوعه.

لكن العبرانيين المتحجرين في مفاهيمهم العرقية، ومعتقداتهم الدينية الخرافية، كانوا بطبيعتهم هذه شاذين عن ناموس التفاعل

---

(79) جاك بيران "الخطوط الكبرى في التاريخ العالمي" ج: 1 ص: 115.

(80) راجع فيليب حتي "تاريخ سورية" ص: 218.

والانصهار، كما انهم لعبوا دوراً في عرقلة نشوء الوحدة السورية الشاملة.

أما صدقيا فتظاهر بموالاة نبوخذ نصر لكنه بقي موالياً لمصر، فانتظر فرصته المواتية ليتعاون معها، ويستنجد بها ليقاوم الوحدة المركزية. وإذ ظهرت مراوغته لنبوخذ نصر أرسل إليه جيشاً حاصر أورشليم، لكنه علم أن خفرع آت لنجدتها فارتد على المصريين وهزمهم وأعادهم من حيث جاؤوا، ثم شدد الحصار على أورشليم فسقطت بعد نحو سنة ونصف. وهذه المرة لم يقم ملكاً جديداً عليها بل هدم المدينة مع هيكلها، ونقل عدداً كبيراً من سكانها إلى بابل، ثم تابع أعماله التأديبية فهدم جميع المدن الكبيرة في يهوذا. وخلال سنوات قليلة أخضع نبوخذ نصر سورية الغربية الساحلية كلها، ولم تبقَ إلا صور وحدها مستقلة ومستعدة للمقاومة فحاصرها في 582 ق.م، فقاومت ثلاث عشرة سنة. ولقد تمركز نبوخذ نصر في ربلة جنوبي حمص، أي في وسط سورية الغربية. ومن هناك أخذ يوجه حملاته على المناطق التي يريد إخضاعها للمخطط الوحدوي. وبينما كانت صور محاصرة كان هو يخضع سورية المجوفة، ومؤاب، وعمون، وسائر المناطق التي أظهرت بوادر تمرد على مشيئة الدولة البابلية الجديدة. في 572 ق.م. خضعت صور بعد حصارها الطويل، وكانت الحلقة الأخيرة من سلسلة المدن الفينيقية المنعزلة عن بيئتها الطبيعية وعن بعضها.

تآمر الكهنة وانهيار الدولة

إن المعارك المتواصلة التي اضطر نبوخذ نصر أن يخوضها دفاعاً عن الوطن القومي الجديد شغلته عن أي شيء آخر. فلم تنشأ في الدولة أية مؤسسة جديدة تشعر الشعب أن الحكم أصبح من الأرض، و لم يعد نازلاً من السماء، وأن القابض على أعنّة الدولة أصبح يمثل حياة شعبه ومصالحه لا مصالح مردوك ومصالح الكهنة والإقطاعيين. لم يشعر الشعب بأي شعور جديد يمكن أن يشده إلى ملكه، بل تراءت الحال كما كانت في الملامح والأشكال الآشورية السابقة، أي أن الدولة تقوم على عناصر أربعة هي:

- ملك سلطانه مطلق، يستمده من مردوك إله السماء.
- وجيش هو أقوى جيوش العالم القديم.
- وكهنة يمثلون مصالح مردوك لدى الملك.
- وإقطاعيون هم ولاة الملك وحكامه في المقاطعات.

لكن بالرغم من بقاء الدولة البابلية الجديدة في القالب الآشوري الذي انتفضت عليه ودمرته، إلا أنها أقامت المساواة في المواطنة، وعممت الازدهار، واعتمدت القانون البابلي الراقي، وثبتت مركز سورية كعقدة تجارية، ومركز مالي بين الهند شرقاً، والمتوسط غربا، والقوقاز شمالاً، وألغت التفرقة والامتيازات بين المناطق السورية.

لم يكن نبوخذ نصر كما تصوره توراة اليهود طاغية سفاكاً، وقد صورته الكاتبة الفرنسية تابوري في كتابها (نبوخذ نصر) على

حقيقته القومية والإنسانية، ولكنه كان يحمل في نفسه آلام شعبه ونكباته من فجر التاريخ حتى اليوم الذي يحيا فيه، وهو يعرف ما جنته على أمته الإقليميةُ والعرقية اليهودية، لذلك نراه أحياناً لا يشفق ولا يرحم أولئك الذين يريدون إنشاء كيانات إقليمية، ويعطلون الوحدة التي أراد تحقيقها. لكن هذه الوحدة التي حققها، كانت،كما في العصور الآشورية السابقة، مرتكزة فقط على شخصية الملك الإلهي، على الجيش المتفوق لا على روح مجتمعية واعية. فما إن توفي نبوخذ نصر وخلفه نبونيد حتى جنحت الدولة إلى الانهيار، فقد غضب الكهنة، وتآمروا عليه وعلى شعبهم بتسهيل دخول الفاتح قورش عاصمتهم. ويقال إن السبب في ذلك هو حقدهم على نبوخذ نصر، واستضعافهم خليفته المهتم بالأشياء الأثرية وبآلهة جديدة غير آلهتهم.

وهكذا فضّل الكهنة الخونة المتآمرون الحكم الأجنبي البربري على السلالة التي جددت مجد بابل وعظمتها.

عاشت الدولة البابلية الجديدة سبعة عقود فقط، وانهارت انهياراً مفاجئاً، كان يمكن أن يكون نهاية مفجعة للحضارة السورية برمتها لولا عاملان أساسيان: الأول داخلي، والآخر خارجي:

- **العامل الداخلي:** هو اللغة الآرامية المنتشرة في جميع أنحاء الوطن مع ثقافتها المتطورة.
- **العامل الخارجي:** هو فقر الفاتح الفارسي بالثقافة واللغة

والحضارة، مما اضطره أن يتبنى اللغة الآرامية لمراسلاته الرسمية، والابجدية الآرامية ليكتب بها لغته الفارسية.

وقد دخل عنصر ثالث في هذا الصراع السوري ضد الحضارات الدخيلة وهو الدويلات السورية – العربية أو العربية – السورية، التي نشأت في جنوبي سورية في شمالي الجزيرة العربية، والتي كانت ظاهرة سورية عربية جديدة اشتركت اشتراكاً أساسياً في صراع سورية ضد الحضارات الدخيلة، حتى جاءت النهضة العربية الإسلامية، وأطل الفرسان العرب على دمشق لطرد الفرس والبيزنطيين، وإنقاذ القاعدة السورية الحضارية.

نشوء الدولة

يقول سعادة[81]: "لسنا نجد واقع الدولة إلاّ حيث نجد في المجتمع قوة فيزيائية تخضع وترهب".

أما قبل ظهور هذه القوة، فضمان الحقوق الأهلية العامة مسألة يباشرها المجتمع وأوهامه (دينه)، فهي نتيجة القوى المناقبية التي تعمل في المجتمع لتأمين سلامته.

ولا شك في أن ظهور الدولة كقوة ذات سيطرة، قد مر في مراحل عدة، بدأت بمباشرة الرجال الأكثر خبرة بأمور الحياة والمعتقدات الدينية لعملية توجيه الجماعة

[81] "نشوء الأمم" – فركنط ص: 2.

(العشـــيرة أو القبـــيلة)، وتحديـــد أوجه الخير والشر، وسبيل ضمان السلامة العامة.

وهكذا نشأت مكانة **رئيس العشيرة** أو الشيخ الذي أبرزته في عشيرته صفات أو مواهب وقدرات مكنته من أن يقوم بدور القاضي الذي يفصل في الخلافات الداخلية، ويقود المقاتلين في الغزو وفي القتال دفاعاً عن القبيلة. فصلاحيات الدولة إذاً مجتمعة في يد ذلك الشيخ أو الأمير...

ونظراً لأن الناس كانوا يتوجسون خيفة من قوى الطبيعة التي يعجزون عن تفسيرها، فقد ولّد ذلك لديهم تصوراً لقوى خفية تسيطر على الطبيعة، وتتحكم بمصائر البشر، كما أدى ظهور عقائد غريبة في كل المجتمعات البشرية، ومنها المجتمع السوري، وإلى تصور عالم الأرواح.

"ولم يطل الوقت حتى نشأ سلك السحرة والعرافين الذين كان لهم تأثير كبير على المجموع بإعلان إرادة عالم الأرواح الذي كانوا يدّعون الاتصال به. وبذلك تمكنوا من إنشاء عادات جديدة، واتخذوا لأنفسهم صلاحية إصدار الأحكام باسم الأرواح المحجوبة، باسم الآلهة".

"وهكذا نجد أن **التشـــريع** كان يستند في البدء إلى السحر والعرافة (الدين) فضلاً عن العادة".

"ولكـــن الجماعات المتقدمة لا تعدم ســـن القوانين بالاستنباط، حيث تجتمع عشـــائر القبيلة في وقت معين من

السنة، فيقترح أحـــد الشيوخ رأياً، فإذا لاقى اقتراحه الاستحسان صار قانونـــاً[82]".

وإننا لنجد في هذه الطريقة من سن القوانين والتشاور بشأنها شكلاً من أشكال التطور نحو الدولة الديمقراطية "التي تتألف من الرأس، ومجلس الشيوخ أو مجموع الشعب. ومجلس الشيوخ يتألف من رؤساء البيوت، أو العائلات، أو العشائر التي هي من صلب القبيلة. وفي هذه الحالة يكون الرأس مقيداً برأي المجلس أو الجماعة، وفي الدولة القبلية ذات الأرضية المتسعة لا سبيل لاجتماع الشعب، فيكون الشأن دائماً للشيوخ".

"وقد ظلت إدارة الدولة متأخرة جداً عن النظام الدستوري للدولة، ولذلك لا يصح مطلقاً أن نطلق على الدولة الأولية اسم منظمة. ولاشك في أن العادة، وما مشى عليه الجدود، شكّلاً قسماً كبيراً من الإدارة الفعلية، والعقائد والأوهام الدينية (السحرية والخرافية) تلعب دوراً هاماً في عرقلة تقدم الإدارة؛ فنفوذ السحرة وتسلطهم على العامة عظيم، حتى أن رأس الدولة، في المرتبة الديمقراطية، يتخذ لنفسه وظيفة الساحر، ويستمد من هذه الوظيفة نفوذاً إدارياً لا يستهان به، ولكن ليس كل الرؤوس مؤهلين للأعمال السحرية، ولذلك تظل الكهانة قائمة، وتتخذ لنفسها وظائف دولية كالقيام بنصيب من التشريع".

---

[82] نفس المصدر: فيركنط ص: 5.

ولطالما استغل الكهنة منـــزلتهم استغلالاً بشعاً بلغ حد الظلم في استنـــزاف أموال الناس، والتحكم بأمور حياتهم، ففي مدينة لكش السومرية نجد أن تصرفات الكهان تلك تستدعي من الملك المصلح أوركاجينا أن يصدر المراسيم التي تحرم استغلال الأغنياء للفقراء، واستغلال الكهنة لكافة الناس.

وينص أحد المراسيم على أن الكاهن الأكبر يجب "ألاّ يدخل بعد اليوم حديقة الأم الفقيرة ويأخذ منها الخشب، أو يستولي على ضريبة من الفاكهة" وخفضت رسوم دفن الموتى إلى خمس ما كانت عليه، وحرم على الكهنة وكبار الموظفين أن يقسموا فيما بينهم ما يقربه الناس قرباناً للآلهة من أموال أو ماشية.

ويصف ويل ديورانت[83] إثراء الكهنة من القرابين، وتعاظم نفوذهم فيقول:

"وأثرى الكهنة من هذه القرابين حتى أصبحوا أكثر الطبقات مالاً، وأعظمها قوة في المدن السومرية، حتى كانوا هم الحكام المتصرفين في الشؤون، حتى ليصعب علينا أن نحكم إلى أي حد كان الباتيسي كاهناً، وإلى أي حد كان ملكاً، فلما أسرف الكهنة في ابتزاز أموال الناس نهض أوركاجينا كما نهض لوثر، فيما بعد، وأخذ يندد بنهمهم وجشعهم، ويتهمهم بالرشوة في توزيع العدالة، وبأنهم يتخذون الضرائب وسيلة يبتزون بها الزراع والصيادين ثمرة كدهم".

---

[83] "قصة الحضارة" ج: 2 ص: 29.

ويضيف: و"استعاد الكهنة سلطانهم بعد موت أوركاجينا كما استعادوا سلطانهم في مصر بعد موت أخناتون".

ومن أعظم الشواهد الناطقة بما بلغه الدين، وهو أول الأديان التي عرفها التاريخ، ذلك الدعاء الذي يتضرع به الملك غوديا للإلهة "بو" راعية لكش ونصيرتها:

أي مليكتي... أيتها الأم التي شيدت لكش
إن الذين تلحظينهم بعينيك ينالون العزة والسلطان،
والعابد الذي تنظرين إليه تطول حياته.
أنا ليس لي أم، فأنت أمي
وليس لي أب، فأنت أبي
أي إلهتي "بو" إن عندك علم الخبر
وأنت التي وهبتني أنفاس الحياة
وسأقيم في كنفك أعظّمك وأمجدك
وأحتمي بحماك يا أماه [84].

الدولة التاريخية

"يبتدئ عهد الدولة التاريخية في الأقوام الثقافية الخارجة من العصر الحجري – المعدني، وهي الأقوام السورية في بابل وأرض كنعان، بالانتقال من التنظيم العشائري إلى دولة الأرض، وبتحول الأمير ذي القوة السحرية الخرافية إلى ملك هو الكاهن الأعلى

[84] "قصة الحضارة" ج: 2 الباب 7 ف. 2 ص: 31.

للإله[85] أو من سلالته". وإننا نجد الدولة التاريخية نفسها مستندة في بدئها إلى أساس ديني ولكنها تطورت مع تطور الشعوب. وقد طبعت الدولة التاريخية، في بدء نشوئها، بطابع الاستبداد لأن الدولة بطبيعتها قوة، والقوة تتطلب دائماً السيطرة "ولم تكن الدولة فقط تدعي سلطة الآلهة بل كان الناس ينظرون إلى الملك على أنه مخوَّل من قبل الآلهة؛ فطاعته هي من بعض واجبات العبادة. وكما أوجدت الآلهة المملكة المصرية، كذلك أسست الآلهة مملكة حمورابي وأسلافه فهي "لا تزول حتى تزول السماء والأرض كما يقول الملك نفسه[86]".

ممالك المدن أو دولة المدينة

لقد صار معلوماً لدينا، بفضل ما قدمته لنا الاكتشافات الأثرية وما وقعنا عليه بين أنقاض المدن من وثائق أو رُقُم، أن المجتمع السوري قد سار في تطوره من مرحلة العشيرة إلى مرحلة القرية التي هي بداية العمران، ثم إلى المدينة التي أصبحت كل منها دولة قائمة بنفسها. وذلك في سومر، وأكاد، وفي مناطق الآشوريين، وفي سوريا الوسطى، حيث أقام الأموريون ممالكهم، وكذلك في الساحل السوري، والجنوب أو أرض كنعان. والحق أن كل مدينة كانت شديدة الحرص على استقلالها تعض عليه

---

[85] "نشوء الأمم" — "سعادة".

[86] "سعادة": "نشوء الأمم": ونفر، AVV ص: 20.

بالنواجذ، وتخضع لملك خاص لها يُسميه السومريون باتيسي أو الملك الكاهن؛ فتدل، بهذه التسمية، على أن نظام الحكم كان وثيق الصلة بالدين.

ولكن ما إن وافى عام 800 ق.م حتى نمت التجارة نموّا جعل الانفصال بين المدن أمراً مستحيلاً، وقد استطاعت شخصية عظيمة، فيما بعد، أن تخضع المدن والملوك الكهنة لسلطانها، وأن تؤلف، من هذه المدن، وحدة سياسية واقتصادية.

كما أن المدن الساحلية، رغم انفصالها، كانت تتنافس فيما بينها على الزعامة؛ فتارة تكون الزعامة لصيدا، وطوراً لصور، أو لجبيل، أو غيرها. وتخضع سائر الممالك (المدن) لدولة المدينة صاحبة السيادة سياسياً واقتصادياً، مع الحفاظ على استقلالها الداخلي.

وفي سومر "كان يحيط بالملك الأعظم جو من العنف والخوف شبيه بما كان يحيط الملوك في عصر النهضة الأوروبية، ذلك أنه كان معرضاً في كل وقت، لأن يقضى عليه بنفس الوسائل التي قضى بها على منافسيه وارتقى عرشه. وكان يعيش في قصر منيع له مدخلان ضيقان لا يتسع الواحد منهما لدخول أكثر من شخص واحد في كل مرة. وكان على يمين المدخل وشماله مخابئ يستطيع مَنْ فيها من الحرس السريين، أن يفحصوا كل زائر أو ينقضّوا عليه بالخناجر[87]. بل أن هيكل الملك كان هو نفسه مكاناً سرياً مختفياً في قصره.

[87] "قصة الحضارة" ج: 2، الباب السابع ف. 2 ص 26.

وكان الملك يخرج إلى الحرب في عربة على رأس جيش مؤلف من خليط من المقاتلين مسلحين بالقسي والسهام والحراب.

وقد حدث في هذه المدن ما حدث بعدئذ في المدن الإيطالية في عصر النهضة، فكانت النـــزعة الانفصالية التي تسود المدن السومرية حافزاً قوياً للحياة والفن فيها. ولكنها كانت كذلك باعثاً على العنف والنـــزاع الداخلي، فادى هذا إلى ضعف الدويلات جميعها[88]. وكان نظام الإقطاع وسيلة حفظ النظام الاجتماعي، ففي أعقاب كل حرب كان الملك يُقطِع الزعماء والبواسل مِساحات واسعة من الأرض معفاة من الضرائب، وكان من واجب هؤلاء الزعماء أن يحافظوا على النظام في اقطاعاتهم، ويقدموا للملك حاجته من الجند والعتاد.

وكانت موارد الدولة تتكون من الضرائب التي تجبى عينا، وتخزن في المخازن الملكية، وتؤدى منها مرتّبات موظفي الدولة وعمالها.

وكانت تعتمد هذه الدولة، في إدارتها، مجموعة من القوانين تستند إلى قوانين سابقة من عهد أور – انغور ودنغي اللذين جمعا قوانين أور ودوّناها، فكانت هي المعين الذي استمدّ منه حمورابي شريعته الذائعة الصيت.

والقانون السومري يشمل العلاقات التجارية، كما يشمل العلاقات الاجتماعية والزوجية، وينظم شؤون القروض، والعقود،

---

[88] نفس المصدر.

والبيع، والشراء، والتبني، والوصية، بكافة أنواعها. وكانت المحاكم تعقد جلساتها في المعابد، ومعظم قضاتها من رجال الدين. أما المحاكم العليا فكان يعين لها قضاة فنيون مختصون[89]. ويذكر أسد الأشقر في كتابه الوثائقي (تاريخ سورية القديم)[90] أنه "منذ بداية الألف الثالث ق.م كانت في سومر حياة برلمانية راقية، لا تقل رقيا عن المدن الفينيقية واليونانية في أوج مجدها[91]، وحوالي 2000 ق.م اجتمع أول برلمان معروف حتى ذلك اليوم في دورة علنية، وكان مؤلفاً، مثل برلمانات أيامنا هذه، من مجلس الشورى أو مجلس الشيوخ؛ ومن جمعية الشعب المؤلفة من جميع المواطنين الذين في سن حمل السلاح، فكأننا في أثينا أو في روما الجمهورية، ومع ذلك نحن في الشرق الأدنى، وقبل أن تولد الديمقراطية اليونانية بألفي عام كاملة وقبل أن تولد روما نفسها.

و لم يكن البرلمان المنوه عنه قد استدعي لأمر بسيط بل لدورة استثنائية، كان على المجلسين أن يختارا فيها بين ما نسميه اليوم "السلم بأي ثمن" و"الحرب مع السيادة" ويهمنا جداً أن نحدد الظروف التي انعقدت فيها هذه الدورة التاريخية:

كانت سومر مؤلفة في الألف الثالث ق.م من عدة مدن – دول تتنافس على السيطرة. وكانت كيشمن أهمها، فقد مُنحت

---

[89] نفس المصدر – ص: 27 و82.

[90] ص: 94.

[91] صموئيل بيكر: "التاريخ يبدأ من سومر" ص: 68 – 70.

المُلْكَ من السماء بعد الطوفان مباشرة، وحسب الأسطورة السومرية. إلا أن مدينة أوروك في الجنوب كانت تبسط قوتها ونفوذها مهددة سيطرة منافستها — كيش – جدياً. وأخيراً أدرك ملك كيش واسمه عقا في القصيدة، أهمية الخطر فهدد أهل أوروك بالحرب إن لم يبايعوه الولاء.

في هذا الوقت الحاسم استدعي مجلسا أوروك: مجلس الشيوخ، ومجلس المواطنين الأصحاء.

وتبدأ القصيدة بوصول مبعوثي كيش إلى أورك حاملين إليها إنذاراً أخيراً، وقبل أن يعطي غلغامش ملك أوروك جوابه استشار مجلس المدينة راجياً بشدة وحرارة: رفض الخضوع إلى كيش، وحمل السلاح، والقتال حتى النصر. ولكن الشيوخ لم يشاركوه رغبته، بل فضلوا الخضوع حفاظاً على السلام.

استاء غلغامش من هذا القرار، وانتقل إلى مجلس رجال المدينة وكرر عليهم مرافعته، فقرر أعضاء هذا المجلس الثاني أن يقاتلوا: (لا خضوع لكيش) فسرّ غلغامش، وبدا واثقاً من نتائج القتال.

إذن كانت المدن السومرية قد بدأت تمارس نظام المجلسين الديمقراطيين منذ غرّة الألف الثالث ق.م. وبقيت في تقدم مستمر في هذه الناحية الديمقراطية إلا عندما تضرب من الخارج.

وفي بابل الأولى: سلطة الملك لم يكن يقيدها القانون وحده ولا الأعيان وحدهم، بل كان يقيدها ايضاً الكهنة، وذلك أن الملك لم يكن، من الوجهة القانونية، إلا وكيلاً لإله المدينة. ومن

أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله. وكانت تتخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل، ولم يكن الملك يعد ملكاً بحق في أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية، وأخذ بيد بل، واخترق شوارع المدينة في موكب مهيب ممسكاً صورة مردوك.

"وكان الملك في هذه الاحتفالات يلبس زي الكاهن، وكان هذا رمزاً لاتحاد الدين والدولة، ولعله يرمز إلى أصل الملكية الكهنوتي.

وكانت تحيط بعرشه جميع مظاهر خوارق الطبيعية، ومن شأن هذه كلها أن تجعل الخروج على طاعته كفراً ليس بعده كفر، يجازى من يجرؤ عليه ليس فقط بضياع رقبته، بل وبخسران روحه أيضاً[92]".

وحتى حمورابي العظيم نفسه تلقى قوانينه من الإله، لكن ذلك كان يعد حذقاً منه، فقوانينه، في واقع الحال، كانت تمتاز بصبغتها الدنيوية غير الدينية. وهي، وإن كانت تفتتح بتحية الآلهة، إلا أنها لا تحفل بها بعدئذ[93] في ذلك التشريع الدستوري البعيد كل البعد عن الصبغة الدينية. وهي تمزج أرقى القوانين وأعظمها استنارة بأقسى العقوبات واشدها وحشية.

أما في العهد الآشوري، فقد ظل الملوك، مئتي عام كاملة، يسيطرون بقوتهم الوحشية التي فرضتها ظروف الهجمات المتتالية عليهم، من قبل القبائل الجبلية من جميع الجهات، وحملات التوسع.

---

[92] "ديورانت"، "قصة الحضارة" ج: 2 الباب التاسع ص: 211.

[93] "ديورانت"، "قصة الحضارة" ج: 2 الباب التاسع ص: 191.

يقول ديورانت[94]: "ولم يخطر ببال آشور بانبيال أنه ورجاله وحوش كاسرة أو اشد قسوة من الوحوش، بل كانت جرائم التقتيل والتعذيب هذه، في نظرهم، عمليات جراحية لابد منها لمنع الثورات، وتثبيت دعائم الأمن والنظام بين الشعوب المختلفة المشاكسة. على أن هذا الملك لم يكن مجرد ملك فاتح أسكره سفك الدماء، وشاهدُ ذلك ما شاد من مبانٍ، وما بذله في تشجيع الفنون والآداب. وكان مثل فريدريك الأكبر يفخر بملكاته الأدبية كما يفخر بانتصاراته في الحرب والصيد".

"ولا مجال، في هذا البدء التاريخي للدولة، في هذه الدولة التي أسستها الآلهة، لتعريف القوة السائدة بأنها من صفات الإرادة العامة التي عممها الاتحاد في القصد[95]، فالقصد هو قصد الدولة، قصد القوة السائدة المسيطرة، قصد الملك الذي استأصل شأفة الثأر، وجعل الحقوق الجزائية من شأنه[96]، وانشأ الجيش وسيّره للفتح والسلب. وتصريف شؤون الدولة أمر متفق عليه بين الملك والإله".

"سارت الدولة التاريخية نحو الإمبراطورية بعامل مبدأ القوة، والدولة المتسعة كانت تمثل انتصار فكرة القوة السياسية على فكرة العدل[97]، وتمت السيطرة التي أصبحت محور المزاحمة بين طبقة

(94) "ديورانت"، "قصة الحضارة" ج: 2 الباب التاسع ص: 270.
(95) "سعادة"، "نشوء الأمم". مكيور ص: 14.
(96) نفس المصدر، كولر، ص: 57.
(97) "سعادة"، "نشوء الأمم" مكيور، ص: 25.

الملاكين الأرستقراطية والملك، ولكن سياسة الإمبراطورية كانت في جانب الملك لما تقتضيه من التمركز خصوصاً حينما كانت الخطط خطط الملك، كما في بابل".

"في بابل تمركزت القوة والإدارة حتى أصبحت إرادة الفرد – الملك، هي كل شيء في الدولة. ومع أن حمورابي لبى دعوة الآلهة ليقيم القسطاس في الناس فإن شريعته الشهيرة التي خلدت ذكره، كلها أحكام زمنية دنيوية – كما سبق أن ذكرنا آنفاً – وليس في بابل لسلك الكهنة ذلك الشأن الذي كان له في مصر مثلاً في زمن الدولة الحديثة".

"كان للتفرد في السلطة في بابل الشأن الأعظم في تنظيم الدولة، وترتيب الإمبراطورية، وأن المسؤولية تجاه الملك، وإمكان مراجعة الرعية الملكَ في أي أمر كبير أو صغير منع تولد سيطرة النبلاء، وذهاب السلطة إلى أيديهم".

والحقيقة أننا نجد جذور الديمقراطية الحديثة في سلطة الفرد التي أنقذت السيادة من مطامح الإقليمية الممتازة، أو كما يقول مكيور[98] "... وعلى هذه الطريقة أعدت الملكية طريق الديمقراطية".

فالديمقراطية مسألة نسبية، والمجتمع السوري في بابل كانت له نزعته الاقتصادية التي تتطلب أن تكون له حكومة مطلقة تسندها الثروة التجارية أو الامتيازات الإقطاعية، ويحميها توزيع حكيم

[98] نفس المصدر، مكيور، ص: 59.

للعنف القانوني كما يقول ويل ديورانت[99]: "وكان كبار الملاك، ومن حل محلهم بالتدريج من التجار الأثرياء، هم الذين أعانوا الدولة على الاحتفاظ بنظامها الاجتماعي كما كانوا هم الواسطة بين الشعب ومليكه".

وفي الأقاليم، كان يدير دفة الحكم عدد من كبار الموظفين الإداريين الذين يعينهم الملك، وكان إلى جانبهم جمعيات إقليمية أو بلدية مؤلفة من أعيان البلاد أو شيوخها، يسدون النصيحة إلى هؤلاء الحكام أو يوقفونهم عند حدودهم إذا تجاوزوها.

وكان كل موظف إداري، كما كان الملك نفسه، في معظم الأحوال، يعترف بسلطان كتاب القانون العظيم الذي تحدد وضعه وصيغته في عهد حمورابي ويسترشد به، وقد ظل هذا القانون العظيم محتفظاً بجوهره خمسة عشر قرناً رغم ما طرأ على أحوال البلاد من تغيير، ورغم ما أدخل عليه من تفاصيل.

وكان تطوره يهدف إلى استبدال الأحكام ذات الصبغة الدينية الخرافية بأحكام ذات طابع عقلاني أكثر عدلاً، مثال ذلك أن محاكمة المتهمين كانت في الأيام الأولى توكل إلى الآلهة، فإذا اتهم رجل بممارسة السحر، أو اتهمت امرأة بالزنى، طلب إليهما أن يقفزا إلى نهر الفرات، وكانت الآلهة على الدوام في جانب أقدر المتهمين على السباحة، لكن محاكم غير دينية أخذت منذ أيام حمورابي نفسه تحل محل مراكز القضاء الدينية. وقام العقاب في أول

---

[99] "قصة الحضارة"، ج: 2 ص: 207.

الأمر على مبدأ قانون القصاص (النفس بالنفس والعين بالعين)، ثم استبدل هذا القصاص شيئاً فشيئاً بفرض غرامات مالية.

ولعله من المفيد هنا أن نذكر بعضاً من نصوص أحكام العقوبات التي اشتملت عليها شريعة حمورابي، والتي كان بينها عقوبات رادعة في غاية القسوة والهمجية مثل الحكم على بعض المجرمين بالموت غرقاً أو بتر الأعضاء. فإذا ضرب رجل أباه جوزي بقطع يده[100]، وإذا تسبب طبيب في موت مريض قطعت أصابع الطبيب، وإذا استبدلت قابلة طفلاً بآخر عن علم بفعلتها قطع ثدياها. وكانت جرائم كثيرة يعاقب عليها بالإعدام منها: هتك العرض، وخطف الأطفال، وقطع الطرق، والسطو، والفسق بالأهل، وتسبب المرأة بقتل زوجها، ودخول كاهنه خمارة، والجبن في ميدان القتال، وسوء استعمال سلطة الوظيفة.

وهناك أحكام أخرى تجسد العدل في أرقى صوره حتى لتعجز أكثر الدول المعاصرة رقياً عن بلوغ مستواها، ومنها على سبيل المثال "إذا سرق لأحد المواطنين مال أو متاع، وعجز حاكم المدينة على إيجاد السارق، يتوجب على الحاكم أن يصطحب المسروق له إلى المعبد فيجعله يقسم اليمين على مسروقاته، وعليه عندئذ أن يعوض عليه كافة ما سرق له" وإذا أدى السطو إلى خسارة في الأرواح دفعت المدينة ودفع الحاكم "مينا" أي بمقدار 300 ريال إلى ورثة القتيل.

---

[100] "قصة الحضارة" "ويل ديورانت"، الباب التاسع، ف: 3 ص: 209، 143، 194.

ومنه أحكام تحدد الأجور والأتعاب: فأجر الطبيب الجراح مثلاً يقرره القانون، وقد حدد قانون حمورابي أجور البنائين، وضاربي الطوب، والخياطين، والبنائين بالحجارة، والبخارين، والبحارة، والرعاة، والغفلة، وخص قانون الوراثة أبناء الرجل بتركته دون زوجه، فإذا مات رجل عن زوجه كان لها الحق في مهرها، وهدية عرسها، وظلت ربة البيت ما دامت على قيد الحياة. ولم يكن حق الميراث محصوراً في الابن الأكبر، بل كان الأبناء كلهم متساوين في الميراث.

لم نجد في الوثائق ما يستدل منه على وجود المحامين في بابل إلا إذا اعتبرنا، من المحامين، الكهنة الذين كانوا يعملون موثقين للعقود، والكتبة الذين كانوا يكتبون كل ما يطلب إليهم كتابته من الوصية إلى الأرجوزة نظير أجر يتقاضونه. وكان المدعي يترافع في قضيته بنفسه. وقد كان الناس يتهيبون التقاضي فلا يقدمون عليه إلا مكرهين. فقد كانت أول مادة في القانون تنص، في بساطة، على أنه إذا اتهم مواطن مواطناً آخر بجريمة عقابها الإعدام ثم عجز عن إثباتها، حكم على المدعي نفسه بالإعدام[101]. وكانت في بابل محكمة استئناف يحكم فيها قضاة الملك. وكان في وسع المتقاضين أن يرفعوا استئنافاً نهائياً إلى الملك نفسه.

[101] "قصة الحضارة": "ديورانت" ج:2، ص: 210.

يعلق "ويل ديورانت" على عدالة هذه الشريعة بقوله[102]: "فهل ثمة في هذه الأيام مدينة بلغ صلاح الحكم فيها درجة تجرؤ معها أن تعرض التعويض على من تقع عليه جريمة بسبب إهمالها؟ وهل ارتقت الشرائع حقاً عما كانت عليه أيام حمورابي، أو أن كل الذي حدث لها أن تعقدت وتضخمت"؟

ولاشك في أن قانون حمورابي لم يقتصر سريان أحكامه على منطقة محددة من المدن السورية، بل أن جميع المدن السورية، خلال خضوعها لحكم البابليين وبعده، قد استمدت من هذا القانون معظم أحكامه، وعملت بموجبها، فالوحدة المعرفية أو الفكرية أو الحضارية عموماً قد ظلت محققة في كل أرجاء الوطن السوري، بغض النظر عن فترات تفكك الوحدة السياسية وسيطرة النـــزعات الاستقلالية والانفصالية في الحكم.

الدولة المدنية والإمبراطورية البحرية

يقول سعادة[103]: لكن الدولة لم تسر دائماً على الأسلوب المتقدم وصفه، فهو من خصائص أسباب معينة في ظروف مناسبة. ففي سورية نجد أنها قد ساهمت في الدولة البرية حيث ساعدت الظروف، كما في الشرق، حيث نشأت الإمبراطورية الأكادية والبابلية الأولى والثانية، وكما في الشمال حيث نشأت

---

[102] نفس المصدر.

[103] "نشوء الأمم".

الإمبراطورية الآشورية والحثية. وإننا نعلم أنه على أثر انتهاء الإمبراطورية الوسطى في مصر نفسها قامت في سورية حركة إمبراطورية واسعة اكتسحت مصر وثبتت هناك، وأنشأت الأسرة المعروفة بأسرة الهكسوس الذين عرفوا بإحدى الترجمات "بالملوك الرعاة"[104].

لكـــن اتجاهاً خاصاً في الدولة نشأ في سورية الغربية، ونرجّح أن السبب الأقوى في نشوء هذا الاتجاه هو البيئة السورية المتنوعة، وخصوصاً على الشاطئ السوري، فإن البحر بالنسبة للسوريين لم يكـــن، كما كان عليه بالنسبة لأقوام البلدان الأخرى، حدّاً يجب الوقوف عنده. ومن هذا الواقع ندرك أن التاريخ غير مكتوب على الأديم فهـــو غـــير حـــتمي كما تظهره أقوال وكتابات كثير من السوريين في عصر الخمول القومي، مثل القول (إن سورية جسر بين الشرق والغرب) أي أن تاريخها مقرر في موقعها. والحقيقة أن الأرض تقدم الممكنات لا الاضطراريات أو الحتميات، وهذا يعني أن الأرض هي الجهة الإيجابية من التاريخ لا الجهة السلبية، فكون سورية مجازاً أو صلة وصل بين الشرق والغرب لا يحتم مطلقاً أن يكون تاريخها تاريخ جسر، ولدينا أكثر من برهان على صحة ما نقول:

إن شكل الأرض الداخلي قد نوّع الممكنات للأقوام السورية، فإن سلسلة جبل لبنان أوجدت صعوبة كبيرة لأعمال

---

(104) نفس المصدر، بريستد، ص: 216 -219. أيضاً، ماير، ج: 2 ف: 468.

توسيع الدولة وتثبيتها، ولكن ليس هذا كل شيء، بل إننا نرى من الوجهة الشعبية، اتجاهاً خاصاً، فإن الكنعانيين انصرفوا إلى أعمال الزرع والغرس والتجارة، فلم يوجهوا عنايتهم إلى الحرب والغزو إلا نادراً ولذلك لم يقوَ فيهم الميل إلى إنشاء الإمبراطوريات الاستبدادية الرامية إلى التوسع في الأرض، وهم محاطون من الصحراء والجبال والبحر. أما في الشمال فإن الأرض تتسع من مجرى الفرات والخابور والدجلة. وفيما سوى الدول الأرضية الواسعة التي نشأت في الشمال ودولة الأموريين في لبنان وما وراءه نجد دولاً سورية تتخذ صبغة جديدة هي صبغة المدينة خصوصاً في الغرب على الشاطئ، أما لبنان، حيث نزل الفرع الفينيقي من الكنعانيين، فأنشئت المدن: صيدا، بيروت، جبيل، طرابلس، أرواد، صور، عكا، وصارت كل مدينة دولة مستقلة. كما نشأت المدينة البحرية التي أوجدت اتجاهاً جديداً في الدولة ونشأت معها، الإمبراطورية البحرية. فحتى نشوء هذه المدن كان البحر حداً تقف الدولة عنده، لا مجالاً تتوسع فيه. ولما أخذت مراكب الفينيقيين تسبح في البحر، وتتصل بجزر وشواطئ أخرى صالحة للاستعمار، وجّه هؤلاء الكنعانيون همّهم إلى هذه الإمكانية الجديدة التي كانت لغيرهم حداً للإمكانيات، وتركوا أعباء البر بالمرة، وانصرفوا إلى أعباء البحر بالكلية. وهكذا نجد قوة من نوع جديد تنشأ على الشاطئ السوري، وتمتد إلى أماكن قصيّة، وتقبض على مواردها.

فقد جمع الفينيقيون بين عنصرين يأتلفان كل الائتلاف: التجارة وسلك البحر، القوة السياسية والقوة الاقتصادية.

مثل هذا الرأي، في تعليل التوجه البحري لنشاط الفينيقيين، يعرضه "ويل ديورانت"، وقد رأينا أن نقطتف منه ما يلي[105]: "كان الشاطئ، وهو شريط ضيق من الأرض يبلغ طوله مئة ميل ولا يزيد عرضه على عشرة أميال، محصوراً بين البحر من جهة، والجبال من الجهة الأخرى. ولم يرَ أهله، في استطيان الجبال أو إخضاع هذا الإقليم لحكمهم، عملاً خليقاً باهتمام، بل كانوا يقنعون بأن يظل هذا الحاجز المبارك قائماً شرق بلادهم يحميهم من الأقوام ذوي النـــزعة الحربية.

"وقد اضطرتهم هذه الجبال إلى العيش على ظهر البحار، وظلوا من عهد الأسرة السادسة المصرية، إلى ما بعدها، أنشط تجار العالم القديم. ثم أضحوا سادة البحر المتوسط".

"ثم ارتقى فن الملاحة لديهم حتى استطاع أدلاء السفائن الفينيقيون أن يسترشدوا بالنجم القطبي أو النجم الفينيقي، كما كان يسميه اليونان، ويتوغلوا في المحيطات، ويطوفوا آخر الأمر حول إفريقية فساروا أولاً بازاء الساحل الشرقي متجهين نحو الجنوب و(كشفوا) رأس الرجاء الصالح قبل أن يكشفه فاسكودي غاما بنحو ألفي عام".

---

(105) "قصة الحضارة" ج: 2 الباب 11 ف: 2 ص 310 وما بعد.

"وأقاموا لهم حاميات في نقط معينة على ساحل البحر المتوسط ظلت تكبر حتى أصبحت مستعمرات أو مدناً غاصة بالسكان أقاموها في قادز، وقرطاجة، ومرسيليا، ومالطة، وصقلية، وسردينا، وكورسيكا، بل وفي إنكلترا البعيدة، وربطوا الشرق بالغرب بشبكة من الروابط التجارية والثقافية، وشرعوا ينتشلون أوروبا من الهمجية".

"وازدهرت المدن الفينيقية التي كانت تغذيها هذه التجارة الواسعة، والتي كانت تحكمها طبقة من التجار الأثرياء حذقت فن السياسة الخارجية والمالية، وضنت بثروة البلاد أن تبدد في الحروب الخارجية، وأصبحت هذه المدن على مدى الأيام من أغنى مدن العالم وأقواها. ومن هذه المدن: مدينة جبيل (بيبلوس)، وإلى جنوبها، على بعد خمسين ميلاً، مدينة صيدا، ولم تكن في بداية أمرها إلا حصناً من الحصون، ولكنها نمت سريعاً، فكانت قرية، ثم بلدة، ثم مدينة مزدهرة غنية، ولما أن حاصرها الفرس فيما بعد، أبت عليهم أنفتهم أن يسلموها طائعين إلى أعدائهم، فاضرموا النار في مبانيها".

وكانت أعظم المدن الفينيقية كلها مدينة صور أي الصخرة، وقد أنشئت على جزيرة تبعد عدة أميال عن البحر. وبدأت هي أيضاً حصناً، ولكن ميناءها الأمين، وسلامتها من الغزو، سرعان ما جعلاها حاضرة البلاد الفينيقية كلها. وما إن حل القرن التاسع ق. م حتى كانت صور مدينة غنية في عهد ملكها حيرام. ويقول

عنها استرابون: "إن بيوتها من طبقات كثيرة، بل إنها أكثر طبقات من بيوت روما" (106)

ويقول أسد الأشقر(107):

"كان النظام السياسي الذي ساد المدن الفينيقية هو نفسه الذي ساد المدن السومرية الأولى على ضفاف الخليج، والمدن الأكادية شمالي سومر في المنطقة الوسطى الجنوبية: أي نظام المدينة – الدويلة. والفرق بين المنطقتين أن المدينة – الدويلة الفينيقية البحرية كان البحر مداها، تتوغل في أبعاده المائية كما تريد، وتدافع عن نفسها وعن إقليميتها بقوتين:

- قوة بحرية عاصية على القوى البرية.
- وقوة برية تتساوى مع المدن الأخرى.

أما المدن – الدول الأخرى الممتدة من الخليج حتى الشمال الغربي والوسط الغربي من الهلال الخصيب، فكانت ذات قوة دفاعية واحدة هي السلاح البري. وكانت في تصادمها وتفاعلها مع جيرانها معرضة، أكثر من المدن البحرية، للهزيمة والزوال والخضوع لمدن أقوى منها. ثم أن وجود هذه المدن الفينيقية على الشواطئ في أقصى حدود الهـــلال الخصيب بجوار دولة قوية كمصر كاملة التكوين، واعية موقعها الجغرافي الممتاز قبل أية أمة

(106) "ويل ديورانت"، "قصة الحضارة" ج: 2 الباب 11 ف: 2 ص: 314 والفهرس 28.
(107) "تاريخ سورية القديم" ج: 1 ص: 28.

في الشرق الأوسط، مستعدة أن تجعل من فينيقيا وأرض كنعان الجنوبية الغربية متراساً واسعاً طويلاً يرد عنها هجمات المغامرين. إن وجود المدن الفينيقية في هذا الوضع، إضافة إلى روحها الفردية الإقليمية، قد شجعا دائماً هذه المدن على التهرب من الوحدة الطبيعية التي عملت في سبيلها، عن وعي أو عن ميل طبيعي، جميع الدول الكبرى التي أنشئت في الهلال الخصيب، من عهد سرغون الأول حوالي 2300 ق.م إلى حمورابي الكبير حوالي 1728 ق.م، إلى إمبراطوريات آشور وبابل الجديدة، إلى الأمويين فالعباسيين.

وقد وصف المؤرخ "موسكاتي" الساحل الفينيقي بقوله: "هذه الرقعة من الأرض، حيث تلتقي خطوط المواصلات بين قارات ثلاث، فرض على هذا الساحل أن يقاسي تعاقب الهجرات والغزوات بدون أن يتمكن سكانه من إنشاء دول قوية التنظيم ثابتة".

النقطة الهامة والغريبة في حياة المدن الفينيقية أنها لم تتصادم فيما بينها، ولكنها لم تتحد في دولة واحدة. مع أن مدناً مثل أرواد، وأوغاريت، وصيدا، وصور، قد تفوقت معنوياً ومادياً وعسكرياً، كل بدورها؛ ويتضح بالتالي أن الثغور البحرية كانت منافذ لاستهلاك زخمها وحيوتها.

ونعود إلى تحليل سعادة للاتجاه الإمبراطوري الجديد لدى الفينيقيين[108]: فنقتطف منه ما يلي:

---

[108] "نشوء الأمم".

"كان من وراء هذا الاتجاه الجديد نشوء مبدأ الاستعاضة عن حشد الجيوش خطوطاً طويلة، وفي حملات عديدة لإخضاع المتمردين أو لتأمين السيطرة وأعمال الجباية، بإنشاء النقاط المركزية المسيطرة، وهي المستعمرات المنشأة في نقاط معينة لتأمين المواصلات، والحركات التجارية. أسلوب جديد للتوسع بوسائل جديدة، وقد برهن هذا الأسلوب عن فاعلية قوية ونتائج عظيمة".

"إن هذا الاتجاه الدولي قد أوجد شكلاً جديداً من أشكال الدولة، ومرتبة جديدة من مراتب الثقافة السياسية؛ فالثقافة الكنعانية العريقة لم تقتصر على ما هو اجتماعي اقتصادي، بل تناولت ما هو سياسي أيضاً، فالشريعة الكنعانية، التي أخذ عنها العبرانيون شريعتهم الموسوية[109]، تدل على الارتقاء السياسي العالي في جنوب سورية، كما دلت الشريعة الحمورابية على الارتقاء السياسي العالي في شرق شمالي سورية".

"أدى إدراك الفينيقيين ممكنات البحر إلى إنشاء الإمبراطورية البحرية. فالإمبراطورية البحرية السورية كانت أول إمبراطورية بحرية في العالم. وقد ابتدأت هذه الإمبراطورية بمدينة صيدا التي كانت لها الزعامة الأولى على فينيقية، وبلغت أوجها في صور وقرطاجة. والحقيقة أن صيدا كانت المثال الأول للدولة البحرية للسيطرة".

---

[109] نفس المصدر: بالمسند: المقدمة.

"ولما كانت الإمبراطورية البحرية تقوم على التجارة والمواصلات، أكثر مما تقوم على الاستيلاء على أرض برية واسعة تتطلب الحاميات الكبيرة، فقد أدرك هؤلاء السوريون البحريون، بثاقب فكرهم، أسرار ثبات الإمبراطورية البحرية. شيء واحد لم تدركه الإمبراطورية البحرية القديمة هو وجوب التناسب بين المركز والأطراف. ولو أن الفينيقيين اعتنوا بالقوات البرية عنايتهم بالقوات البحرية لما كانت تعرضت مستعمراتهم ووطنهم لما تعرضت له".

"ومهما يكن من أمر الإمبراطورية البحرية التي تأسست على الشاطئ السوري فإن أهمية الدولة – المدينة التي نشأت في سورية عظيمة جداً خصوصاً دولة المدينة البحرية. في هذه المدينة وضع أساس الحقوق المدنية التي ارتقت في قرطاجة".

"في المدينة السورية البحرية التي طبعت ثقافتها على البحر المتوسط كله تحولت الرابطة القبلية القديمة إلى الرابطة الاجتماعية الواسعة، فزال باكراً ذلك الخضوع الأعمى للملك، وزالت عن الملك تلك الصفة الإلهية التي كانت لا تزال ترافق الملك والأسرة المالكة في الإمبراطورية البرية. وأصبح الملك فيما بعد، ينتخب انتخاباً لمدى الحياة، فكان ذلك أصل الديمقراطية والجمهورية. وصحيح أن الرأسمالية تعاظمت وأن مقاليد الأمور صارت إلى أيدي الطبقة الغنية ولكن حقوق أبناء المدينة الأحرار في انتخاب الملك، وفي الاجتماع لتقرير المسائل الهامة كانت حقوقاً مشروعة".

"في هذه المدينة ابتدأ الناس يشعرون باشتراكهم في حياة واحدة، وفي هذا الشعور نجد أصول مؤسسة حقوق الاشتراك في دولة المدينة، والاتجاه نحو الديمقراطية. ولكن الحقوق السياسية في المدينة السورية البحرية لم تقع في ورطة استبداد الجمهور بواسطة تدخل الأفراد كما حدث في أثينا المدينة الإغريقية لعهد بركليس".

"إن المدينة السورية ظلت محافظة على الفرق بين السياسة والاجتماع، وهذا الفرق هو ما مكن الدولة من اطراد تقدمها".

"ونحن نرى هذا الاطراد جلياً في المستعمرة السورية الخالدة قرطاجة التي ما لبثـــت أن أصبحت دولة قوية ومركز إمبراطورية بحرية مترامية الأطراف".

في قرطاجة زالت الملكية الوراثية باكراً، وحلّت محلها الملكية الانتخابية[110]. وهكذا نجد الدولة القرطاجية تتجه رويداً نحو الديمقراطية.

وأرى هنا أن نتوقف قليلاً عن متابعة تحليل سعادة لمغزى الاتجاه الإمبراطوري البحري على أن نعود إليه بعد أن نورد نبذة مما كتبه أسد الأشقر حول هذا الموضوع[111]، والتي يتضح من خلالها ذلك التروع الإنساني المميز لعلاقة الفينيقيين بالشعوب المجاورة لقرطاجة، يقول أسد الأشقر: "لم ينشأ عند قرطاجة، في

---

(110) "نشوء الأمم" وينفر: ص: 45.

(111) "تاريخ سورية" ج:1 ص 40.

أية مرحلة من مراحل قوتها وسطوتها وسيطرتها شبه الكاملة، أي ولع لأجل الحرب كما كان الوضع عند الأسبارتيين، وعند المكدونيين، وعند الرومان بعدهم".

فبالرغم من أن قرطاجة الناشئة والنامية كانت مرغمة على مواجهة تحديين:

- البداوة المحلية المحيطة بها.
- والحضارة اليونانية العنصرية.

وبالرغم من أن هذين التحديين وضعاها في وضع دقيق ومحرج خاصة وأنها تقوم بأعباء اكتشاف المجاهيل الشاسعة التي لم يكتشفها أحد قبلها، فقد حافظت على مبدأ كنعاني إنساني تقليدي، وهو اتخاذ موقف الدفاع وتجنب العدوان. حتى البرابرة المحيطون بها الذين يشكلون خطراً دائماً عليها لم تشأ قرطاجة أن تدمرهم أو تبعدهم بالحرب عن جوارها. بل اعتبرت أن الأرض أرضهم، واستمرت تدفع إيجار الأرض التي قامت عليها إلى القبيلة المالكة حتى 520 ق.م حين جاءت القبيلة تطلب تعويضاً كبيراً كتسوية نهائية على إيجار الأرض التي مرَّ نحو ثلاثة قرون على استئجارها.

وهكذا نجد أن السياسة الديمقراطية في الداخل قد انعكست على سياسة قرطاجة الخارجية بشكل يدفعها إلى احترام حقوق الشعوب، والترفع عن العدوان على الأقوام الضعيفة.

ويبدو أن الديمقراطية في قرطاجة كانت تعبيراً عن نزعة أصيلة وميل طبيعي، بدليل ما كانت تبديه من حرص على التشبث بها،

بشكل يجعلها تتخذ الاحتياطات التي من شأنها أن تحول دون التخلي عنها لصالح أي تسلط فردي، أو أية حكومة استبدادية. وهذا ما يؤكده سعادة فيقول[112] "إن أهم عصور الدولة القرطاجية كان عصر مجلس الشيوخ، ومجلس المئة وأربعة أعضاء. وكان مجلس الشيوخ يتألف من نحو ثمانية وعشرين عضواً وكان يمثل رأس الدولة، ففي صلاحيته كان إبرام شؤون الدولة وتمثيلها في الخارج، وإليه يعود الملوك، ومنه يستمدون قوتهم. وهنا نجد الدولة الأرستقراطية المؤلفة من طبقة التجار الأثرياء وأصحاب الأملاك الواسعة".

ولكن قبض أسرة من الأسر على مقود الجيش والإدارة معاً بالتعاقب، أوجد خطراً عظيماً على الأرستقراطية، بإمكانية إعلان هذه الأسرة نفسها أسرة مالكة، فلما أنشئ مجلس الـ(104) أصبح هذا المجلس صاحب السلطة العليا في الحكم على موظفي الدولة، وقيادة الجيش، ورجال مجلس الشيوخ، والملوك المنتخبين سنوياً أو السوفت. ومع أن قسماً من هذا المجلس كان ينتخب سنوياً من الشعب، فإن نفوذ الطبقة الغنية، واستعمال المال، وعدم وجود مادة تمنع قابلية إعادة انتخاب الأعضاء على طول الحياة، جعل هذا المجلس يمثل حكم الطبقة. ولكنه كان، في كل حال، خطوة واسعة نحو الديمقراطية، إذ إن مرتبة المتولين لم تكن طبقة خاصة قائمة بنفسها ومنفصلة عن عامة الشعب، بل كانت

(112) "نشوء الأمم" ص: 115.

مرتبطة بتعاطي أهلها الأعمال التجارية[113]، ويمتزجون بالشعب، وهذه كانت ميزة للطبقة الحاكمة في قرطاجة. وإن الطبقات في الدول السورية البحرية لم تتحدد التحدد الذي نراه في غيرها.

ولقد تم نشوء هذا المجلس الذي كان يقصد منه وضع حد للعائلة المسيطرة على شؤون الدولة بدون أن تلجأ هذه إلى مقاومته، فبرهنت الدولة القرطاجية بذلك على مرونة سياسة كبيرة جعلتها فوق جميع الدول الإمبراطورية التي تقدمتها وعاصرتها. ومايير يقول[114]: "إنه لم يكن بين جميع دول الإغريق دولة واحدة بلغت، أو كادت تبلغ، ما بلغته قرطاجة من وسائل القوة والاتساع". ولا يعطي مايير قرطاجة حقها الكامل حين يقول: "إنها جديرة بأن تكون، من حيث الترتيبات السياسية، مثالاً يقتبس عنه الإغريق من بعض الوجوه".

إن محاولة الجمهورية الإغريقية ألغت الدولة أو كادت تلغيها، وأن الأسلوب الذي جرت عليه الدولة في تقدمها وارتقائها كان الأسلوب السوري الذي ارتقى في قرطاجة إلى الديمقراطية، ووضوح الحقوق المدنية والحقوق الشخصية، مع بقاء الدولة شيئاً متميزاً عن الشعب، مؤسسة لا يمكن أن تعرض لعبث الجمهور.

قسم ديودوروس اتباع الدولة القرطاجية إلى أربعة أصناف:

---

(113) نفس المصدر: مايير، ج: 3 ص: 382.
(114) نفس المصدر.

1- فينيقيي قرطاجة. 2- فينيقيي ليبيا.

3- الرعايا الليبيين. 4- البدو.

ولقد ميزت قرطاجة بين رعاياها الفينيقيين ورعاياها الليبيين.

وصحيح أن المدن الفينيقية التي كانت في البدء حليفة قرطاجة، أصبحت خاضعة وداخلة في نطاق حقوقها، مع احتفاظها بحكوماتها الخاصة؛ ولكن ذلك جعل أبناء هذه المدن مساوين للقرطاجيين في الحقوق الشخصية والمدنية، فكانوا يترقون في الجيش، ويحق لهم تسلم المراتب العالية فيه، ولكنهم كانوا فاقدي الحقوق السياسية.

لم تعرف قرطاجة الثورات الدموية العنيفة، وهذه الحقيقة تدل على أن الدولة لم تسر على طريقة الإرهاق.

إن المعضلة السياسية العظمى التي كانت تواجهها قرطاجة هي النـــزاع الشديد الصامت بين الطبقة القابضة على زمام السلطة وقائد الجيش.

والحقيقة أن هذا النـــزاع كان السبب الرئيس في خسارة الحرب الفينيقية الثانية مع روما، ففي هذه الحرب الطاحنة التي وضع خطتها هاني بعل، أعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الأمم[115]، سلك مجلس قرطاجة خطة غريبة تجاه هذا القائد القرطاجي العظيم، فقد اهتم هذا المجلس بإرسال المدد إلى الميدان

[115] إن أركان الحرب الألمان قد اتبعوا في الحرب الكبرى خطة هاني بعل في معركة كاني، كما صرح بذلك (فون فرتش). أنظر أيضاً (جوان ربيرو).

الإسباني، ولم يتخذ أي تدبير حاسم لإيصال المدد الضروري إلى الميدان الإيطالي.

وفي قرطاجة، كما في روما، كان النـــزاع شديداً بين حزب الشعب والطبقة القابضة على مقاليد الأمور. ومع أن المبدأ المعترف به في قرطاجة كان مبدأ سيادة الشعب، فإن هذا المبدأ ظل بعيداً عن التحقيق بسبب مناورات الطبقة الحاكمة وبذل المال. ولكن الكوارث التي نزلت بقرطاجة في الحرب الفينيقية الأولى، وخسارة الحرب الفينيقية الثانية التي كانت كفتها فيها راجحة، قوّى روح الاستياء في شعب المدينة، ونشط الحزب الديمقراطي، ومكّن هاني بعل من تحقيق إصلاحه الديمقراطي بإلغاء وإعادة انتخاب أعضاء مجلس الـــ(104) أكثر من مرة واحدة.

أعطى إصلاح هاني بعل قرطاجةَ الديمقراطيةَ الصحيحة والاتجاه الديمقراطي الفعلي. ولم يبق أمام قرطاجة، لاستعادة حيويتها الإمبراطورية، سوى تمديد الحقوق السياسية المركزية إلى المدن الفينيقية التابعة والموالية لها، ورفع الحقوق الشخصية والمدنية في الشعوب الليبية التي ظلت موالية لها، وإعادة تنظيم الجيش على أساس قومي بدلاً من الجيش المستأجر الذي يؤلف أهم قسم من القوات المحاربة.

بعد زوال الإمبراطورية القرطاجية بقي هناك قوتان عظميان هما:

- الإمبراطورية السورية في العهد السلوقي.
- والإمبراطورية الرومانية.

ومع أن الإمبراطورية السورية برهنت على أنها أقوى قوة في الشرق الأدنى، فإن نظامها الملكي لم يفعل شيئاً جديداً في سبيل ترقية فن الدولة.

كانت النظم السياسية للدولة السورية السلوقية مزيجاً غريباً من عناصر يونانية مكدونية. وعناصر سورية[116]. فعلى رأس الدولة كان يقوم الملك بسلطة مطلقة، وكان في الحقيقة هو الدولة وإليه ترجع السلطات كلها. وقد أعلن الأصل الإلهي لمؤسس السلالة في مطلع حكمه. واتخذ السكان السوريون موقفاً يحسن وصفه بالإذعان السلبي. وكانت أعلى وظيفة في البلاط هي وظيفة "وزير القضايا" وهي استمرار لوظيفة الوزير عند الفرس. وكانت سلسلة الوظائف تضم رئيس الديوان الملكي، ووزير المالية والكاتب المالي، وقائد الحرس، والطبيب الرئيس، وكان الموظفون في المقاطعات هم الولاة حكام المقاطعات الصغرى، والكتاب، ومراقبو الضرائب. وكانت وزارة المالية وزارة مرغوباً فيها بشكل خاص.

أما طبقة النبلاء فلم تكن في وضع يمكنها من تقييد السلطة الإمبراطورية. وكانت نساء القصر يتنازعن ويدبرن المكائد للوصول إلى السلطة، وقد منح أنطيوخوس الرابع خطيبته سلطة

---

(116) أنظر "فيليب حتي": "سورية ولبنان وفلسطين"، ج:1 ص: 288.

ملكية على طرسوس ومدينة أخرى في كيليكيا، مما أدى إلى نقمة السكان.

وكان الجيش والأسطول تابعين للملك، وكان الجيش وسيلة أساسية يصل بها الرجال إلى السلطة، وكان مقر قيادته في أفاميا. وهكذا لم يكن البيت السلوقي، رغم ظهور بعض أفراده كسلوقس، وأنطيوخوس الكبير، مؤهلاً للقيام على مقدرات الإمبراطورية تجاه إمبراطورية أحدث طرازاً كروما، فبقيت ترقية فن الدولة من نصيب روما التي خضعت لها سورية بعد زوال الإمبراطورية السورية السلوقية.

لقد امتازت الدولة الرومانية بأمرين هما:

- تمديد عضوية الدولة إلى الملحقات (حق الرعوية).
- إنشاء الشرع في عصر شهد تخريب الإغريق والرومان للعواصم الفينيقية تخريباً تدميرياً تاماً كما فعل الإسكندر بمدينة صور، وكما فعل سيبيو افريكاتس الثاني بقرطاجة، مما أدى إلى طمس معالم الشرع السوري الذي هو أقدم الشرائع في العالم منذ أيام حمورابي، وأكثرها تفصيلاً في الأحكام المدنية، والحقوقية، والجزائية، والواجبات، والحقوق التجارية، والأحوال المدنية، والشخصية. وفيما خرب اليونان والرومان معظم معالم سورية الغربية تولى الفرس تخريب تلك المعالم في جزئها الشرقي.

إن الشرع السوري البابلي – الكنعاني، لابد أن يكون قد ارتقى مع ارتقاء أحوال الدولة الفينيقية، واتساع ملكها ومعاملاتها، خصوصاً في الإمبراطورية القرطاجية.

لكن التخريب الذي ذكرناه جعل روما تظهر بمظهر الدولة الفريدة في اعتمادها التشريع.

ابتدأ الشرع في روما على مثال دولة المدينة السورية، فالحقوق كانت، لأول عهدها، حقوق روما المدنية تسري أحكامها على مدنييها فقط.

فلم يكن لغير أبناء روما حق في حضور اجتماع الجيش، واجتماع الشعب، والتصويت، ولما أخضعت روما شعوباً عديدة لسيطرتها وأدخلتها ضمن نطاقها لم تلغ شرائعها المتمشية عليها بل أبقتها معمولاً بها عندها.

ولكن مبدأ الشخصية هذا لم يكن كافياً لحل القضايا الحقوقية في دولة المدينة السائرة إلى الإمبراطورية، لأن إدخال شعوب متباينة في حقوقها، في نطاق دولة واحدة، أوجب النظر في علاقة هذه الشعوب بعضها ببعض، وأوجب مواجهة قصة العلاقة بين هذه الشعوب والشعب الروماني، أو بين أفرادها وأفراد روما فاختارت روما، حل هذه القضايا بالمعاهدات أولاً، ثم بإدخال حقوق الشعوب في نطاقها القانوني، فصارت هذه الحقوق الشعوبية حقوقاً رومانية أيضاً.

لكن تطور الحقوق الرومانية لم يقف عند هذا الحد بل تابع عمله خصوصاً في العهد الإمبراطوري، أي بعد زوال الجمهورية. في هذا الطور نجد عملاً حقوقياً كبيراً قام به إمبراطور روما السوري "كركلا" الذي مدد الحقوق المدنية الرومانية في (constitut, o Antonina) سنة 212م إلى رعايا الإمبراطورية[117] فهو أول من أعلن حقوقاً مدنية للإمبراطورية.

و لم يطل الزمان بروما حتى سقطت قبل أن يبلغ الشرع المرتبة العامة التي بلغها في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، الإمبراطورية البيزنطية أو الرومية.

في هذه الجهة، خصوصاً في سورية، تابعت الحقوق تطورها في مدرسة بيروت والفضل الأكبر في حل قضية (الحقوق الإمبراطورية والحقوق الشعبية) يعود إلى مجهود المدرسة السورية[118]. وأخيراً اكتمل الشرع الروماني في مجموعة القيصر يوستنيان التي جرى فيها تنقيح وتحوير القوانين القديمة ووضع قوانين جديدة.

في هذه المجموعة نرى الحقوق الشخصية قد تحررت من روابط القرابة الدموية، بل إننا نرى بداءة تطبيق فكرة شخصية الجماعة[119].

لما نشأت الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية، وابتدأت تشعر بقوتها تحولت إلى طلب الفتح، فخرجت جيوش الجهاد، ووجهتها

(117) "سعادة": "نشوء الأمم" ص: 122: ونفر، ص: 15 و193.
(118) "سعادة": "نشوء الأمم" ص: 122: ونفر، ص: 179.
(119) "سعادة": "نشوء الأمم" ص: 122: مكيور ص: 108.

سورية المنقسمة إلى قسمين بسبب التسلط الأجنبي: الغربي التابع لبيزنطة والشرقي التابع لدولة الفرس. ومنذ أن أصبح نظام الخلافة أول وأقوى سلطة في الإسلام، خصوصاً من الجهة التنفيذية والإدارية، ظهر تنافس الطامحين إليه.

وفي التنازع على الخلافة شخصيتان قويتان جداً هما معاوية الأموي، وعلي الهاشمي الأكثر قرباً إلى النبي، والأعظم شأنا من الوجهة الدينية.

لكن معاوية كان قد أصبح ابن محيط غير المحيط العربي، فإن العشرين سنة التي قضاها في سورية "سرينته" أو "سورته"[120] وأعطته اتجاهاً جديداً في الحياة الاجتماعية والسياسية، فإن علم الدولة، وفن السياسية، وعلم الحقوق الدستورية والمبدئية والشخصية كانت قد بلغت في سورية أرقى مرتبة عرفها العالم، فأثرت البيئة الجديدة كثيراً على معاوية، وجهزته ببعد نظر سياسي رجَّحه على منازعه.

ومن هذه الحقيقة ندرك السر في أن معاوية لا عثمان، أسس الدولة الأموية التي طورت الدولة في الإسلام تطويراً خطيراً.

إن الفضل في إيجاد الاتجاه السياسي الدنيوي في الدولة الإسلامية يعود إلى الدولة الإسلامية السورية الأموية ففي هذه

---

[120] "سعادة": "نشوء الأمم" ص: 126.

الدولة جرت المحاولة الفعلية الوحيدة لشد أطراف الإمبراطورية بالمركز[121] وهو ما لم تدرك الدولة العباسية أهميته، ولم تحاول التطور نحو تحقيقه، حتى أن سلطة الخليفة العباسي كثيراً ما كانت تقف عند حدود مدينة بغداد[122].

وأنه لمن الثابت أن الدولة السياسية في الإسلام كانت الدولة السورية الأموية، فلما انتقل الأمر إلى العباسيين عادت الوجهة الدينية والعوامل الفقهية إلى السيطرة، وكان الخلفاء العباسيون ضعفاء في سياسة الدولة، وهذا هو السبب في استفحال أمر البرامكة وغيرهم من العناصر الفارسية والتركية، وعظم شأنهم في تسيير شؤون الدولة.

كان من طبيعة الدولة الدينية أن تدخل في معدوديتها كل الداخلين في الإسلام، وتساوي بينهم في الحقوق المدنية والسياسية، إلا فيما يختص بالخلافة فإنه منصوص على ألا تكون إلا في قريش. وقد ساعد هذا المبدأ كثيراً على تماسك الجماعة الدينية وتعضيد الدولة. وعدت الدولة الإسلامية كل بلاد مفتتحة جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية.

ويحسن بنا، قبل أن نختتم هذا البحث، أن نبين الأسس الحقوقية التي قامت عليها الدولة الإسلامية:

---

(121) "سعادة": "نشوء الأمم". ص: 127 "هوتمن"، AVV ص: 51 و52.

(122) نفس المصدر "هوتمن" ص: 52.

فالمسلمون متساوون في الحقوق المدنية والسياسية والشخصية، إلا في الخلافة، كما ذكرنا، فهي في قريش. وكل من اعتنق الإسلام عد مسلماً له حقوق المسلمين.

أما شرع الدولة فهو شرع الله المنزل على رسوله، وهو شرع ثابت لا يقبل التعديل. ولكن "الاجتهاد" كان مفيداً في تطوير الشرع والحقوق.

ولسنّ القوانين في الدولة الإسلامية ثلاثة مصادر:

1- علم العلماء. 2- إجماع المسلمين. 3- سلطة الخليفة.

وأثر الإجماع ضعيف، فهو لا يظهر إلا في وجوب أخذ العادة والعرف بعين الاعتبار عند الفصل في المسائل الحقوقية.

ولكن الإمبراطورية الإسلامية كانت اسمية أكثر منها فعلية، فقلما كانت سلطة الخليفة أو رأس الدولة تسري في كل أقطار الدولة.

والحقيقة أن التفكك نصيب كل دولة دينية، لأن كل دولة دينية تحمل في داخلها مبدأين لا يمكن الجمع بينهما على استقرار في المجتمعات العمرانية الراقية: هما الوظيفة الروحية والسلطة الزمنية[123]. وهكذا تفككت إمبراطورية الخليفة، وزالت صورتها

[123] الصراع بين هاتين الوظيفتين في أوروبا طبع بطابعه معظم الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ومطلع عصر النهضة. وكان السبب الرئيس في فشل قيام أي نظام إمبراطوري جديد، وفي ظهور الدول القومية التي تفصل بين الدين والسياسة.

بعامل الغزو الصليبي والمغولي، حتى نشأت السلطنة العثمانية التي حاولت أن تبعث فكرة الإمبراطورية الإسلامية فلقب السلطان بالخليفـــة. ولكن العوامل الطبيعية والثقافية كانت أقوى من السلطة الدينية والزمنية، وهو ما أدركه الأتراك بعد الحرب فتركوا الدولة الدينية، وخلعوا السلطان، وأنشأوا دولة قومية في شكل جمهوري.

الفهرس

تحية اكبار 5
الاهداء 7
مقدمة 9

الباب الأول

سورية وجغرافيتها 11

الفصل الأول

الموقع وعوامل البيئية 13

الفصل الثاني

التضاريس 19

الفصل الثالث

البيئة الطبيعية 53

الباب الثاني

التمازج السلالي في سورية عبر العصور 61

الفصل الأول

التمازج الداخلي العفوي 63

الفصل الثاني

التمازج في عصور الغزو الخارجي 77

الباب الثالث

نشوء المجتمع السوري وتطوره 111